

عبد الرحمن محمود العقاد

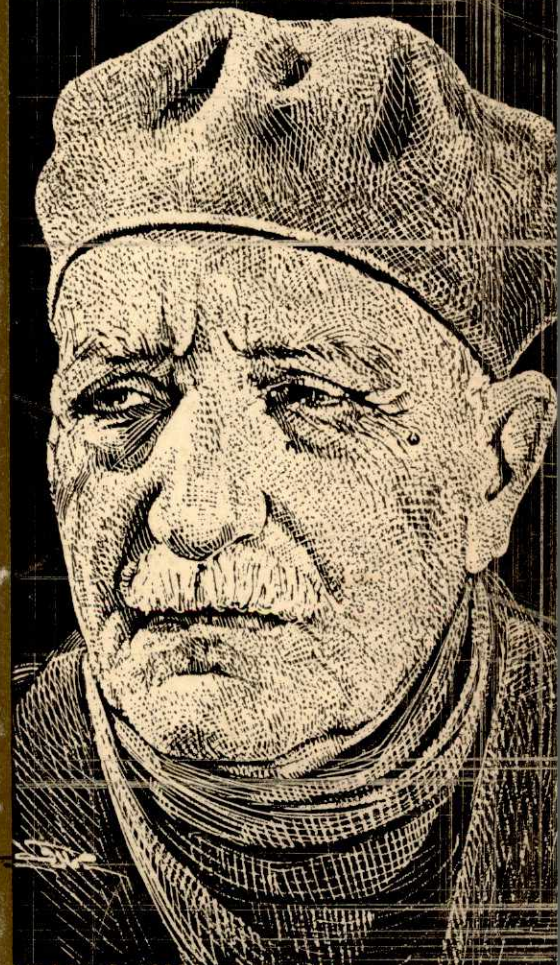
Mingool.com

فليس يكون

مجرد العلم والحياة

مثنويات المكتبة العصرية

بيروت - صيدا





## تقدمة

في الصفحات التالية تعريف بالمفكر الباحث الفيلسوف فرنسيس باكون الذي ينسب إليه بناء العلم الحديث على أساس التجربة والاستقصاء .

وينقسم القول فيها إلى قسمين : قسم « عن باكون » ويشمل النظر في عصره ونشأته وأخلاقه ورسالاته الفكرية ومكاتبه الأدبية .

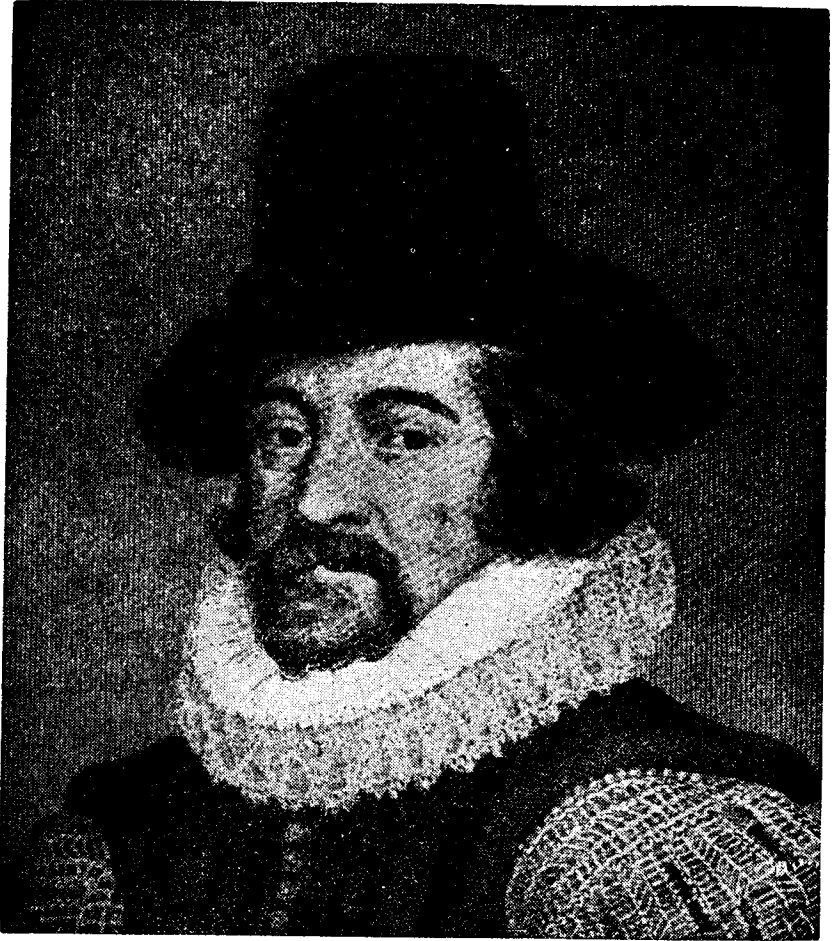
وقسم « من باكون » ويشمل المختارات من كتبه التي يخلد بها بين رجال القلم ولا تنقضى قيمتها الفكرية أو الأدبية بانقضاء فترة من فترات الثقافة الإنسانية أو الثقافة الأوروبية .

وكلا القسمين متمم للآخر في التعريف بالمفكر الكبير ، ولكن في حدود هذه الصفحات التي تكفي لإجمال الجوهرى من عمله وأثره ، ولا ترمى إلى استيعاب النوافل والزيادات ، وإن كانت تومئ إليها أقرب إيماء .

وحسبنا من هذه الصفحات أنها تعرف به من لا يعرفه ، وأنها تضيف شيئاً — ولو يسيراً — إلى هذه الناحية أو تلك من وجهات النظر العديدة إليه ، في رأى عارفيه .

عباس محمود العقاد





فرنسیس باکون



عن باكُون

## عصر الرشد

نشأ فرنسيس با كون في إبان عصر الرشد ، بعد تمهيد غير قصير في طريق اليقظة والاستطلاع والكشف والتجربة .

ونسماه عصر الرشد لأن العصور التي قبله كانت عصوراً قاصرة يفكر فيها العقل البشرى بهيمنة من الوحي المسيطر عليه ، ولا يجرؤ على التفكير لنفسه والاستقلال برأيه وعمله .

فلما نشأ با كون كانت القارة الأوربية قد مضت شوطاً بعيداً في التفكير المستقل والبحث الطريف والاستطلاع الذي لا يحجم عن مسلك من المسالك في عالم الجبول أيا كان وحيثما كان : في السماء أو في الأرض ، وفي أعماق الفكر ، أو في أغوار الضمير .

كان كوبرنيكوس وجاليليو قد عرفا سر الشمس ووضعوا الأرض في مكانها من السماء أو من المنظومة الشمسية .

وكان كولبس قد كشف الأرض لنفسها وجمع بين شطريها بعد طول افتراق وانفصال .

وكانت النهضة قد عمّت القارة الأوربية بين شرقها وغربها وهجمت

عليها هجوم الجيش المحاصر من جميع منافذها : فمن الشرق جاءها الرهبان بعد فتح القسطنطينية يحملون كتب الإغريق وكتب العرب وسائر الكتب التي اجتمعت لطلاب المعرفة من نساك الأديرة في العصور الطويلة ، ومن الجنوب جاءت بها فلول الصليبيين تنقل عن الشرق كل ما اقتبسته من صناعاته ومصنوعاته ، ومن الغرب سرت فيها بقايا الحضارة الأندلسية بعد أن تفرق مريدوها وتلاميذها في الأقطار الأوربية ، ومنهم قسيسون ورهبان ، ومرتابون في العقائد والأديان .

وعكف الإنسان على أغوار ضميره ينقب فيها ويكشف عن خوافيها ... فاستنقذ ضميره من سلطان الجمود الديني ونهج له نهجاً في محاسبة نفسه وانتظار الحساب من ربه يخالف ما درج عليه الأولون مئات السنين ، وتلك هي الحركة المعروفة باسم الإصلاح وما تفرع عليها من المذاهب والنظم والأخلاق .

فهو كما أسلفنا كشف شامل لأجواز السماء وأرجاء الأرض ، وفجاج الفكر ودخائل الضمير .

وهو عصر الرشد الذي يرى فيه الإنسان بعينه بعد أن رأى طويلاً بعيني أبويه ، وهما مغلفتان لا تبصران .

وكان للبلاد الإنجليزية شأن في ذلك العصر غير سائر الشؤون .

لأن الطرق العالمية تحولت من الشرق إلى الغرب ، وانكشفت للملاحين شواطئ إفريقيا الغربية ، وما هو أبعد منها غرباً في القارة الأمريكية ،



فأصبحت الجزر البريطانية وهي محور الحركة الدائمة بين أوروبا وأمريكا وإفريقية وسائر أقطار الدنيا المعمورة ، وانفردت هذه الجزر بالإشراف على جميع هذه الأنحاء بعد انتصار الإنجليز على الأسبان في المعارك البحرية المشهورة . فحاشت هنالك الخواطر وتحفزت الهمم ونشطت بواعث الكشف والاستطلاع في شتى نواحيه ، ولاح على العالم كله بين سمائه وأرضه وبحره وبره وضميره وفكره كأنه خلق جديد .

وإنه يومئذ خلق جديد بغير مرأ .

لأن العالم الذي يراه الرجل الرشيد غير العالم الذي يراه الطفل القاصر ، والعالم الذي تراه العينان معصوبتين غير العالم الذي تراه مفتوحتين بصيرتين .

كان الإنسان لا يختبر شيئاً لنفسه إلا بإذن من وليه وهو بين أمين جاهل أو عاقل غير أمين ، فأصبح جريئاً على الاختبار الميسر له لا يقف به عند شأن من شؤون عقله ولا جسده ولا عمل من أعمال دنياه أو أعمال دينه وكان كل شيء حراماً عليه حتى يقال له إنه حلال ، فأصبح كل شيء حلالاً له حتى يتبين له أنه حرام .

ومن خصائص الآداب والفنون أنها تعرض هذه الأحوال عرضاً لاشبهة فيه ، لأنه يصدر من طوايا النفس عفواً بلا روية ولا اصطناع . فإذا أخطأ التاريخ أوضلت الأفكار فلا خوف على الآداب والفنون في هذا المجال من خطأ أو ضلال .

وآداب اللغة الإنجليزية في ذلك العصر — عصر الرشد — أصدق مرآة لأحوال النفوس والأفكار في جيل باكون الرجل وجيل باكون الفيلسوف فهو القائل إن المعرفة قوة ، وإني « أحسب أن ميداني يتناول المعرفة كلها على أنواعها » .

وهذا الذي قاله الفيلسوف قصداً قد جاء من طريق الإلهام الشعري أو الأدبي على لسان كل شاعر أو كاتب أو أديب تمخض عنه ذلك العصر العجيب .

فشكسبير في رواياته وقصائده لا يدع سريرة من سرائر النفس البشرية إلا غاص فيها وترجم عنها ، ولا يدع صفحة من صفحات الكون إلا نظر في مرآتها وبسط مثال النفس البشرية عليها . ومن كلامه على لسان هملت في فضائل العقل وأغوار الضمير « إن الإنسان قطعة من الخلق ما أعجبها ! ما أنبله في الفكر ! وما أوسع آفاقه في الملكات والمواهب والكيان والحركة ! وما أمضاه وأحقه بالإعجاب في العمل . وما أشبهه بالملك في القريحة ! ما أقربه إلى صورة الأرباب ! إنه لجمال الدنيا والقدوة المثلى في عالم الأحياء » .

وقد أصاب النقاد الذين خصوا الشاعر مارلو Marlowe بالتنويه في تعبيره عن ذلك العصر الطامح إلى القوة والبسطة في كل شعبة من شعب الحياة ، لأنه في الواقع قد تناول جوانب القوة الإنسانية جميعاً فوزعها جانباً جانباً على رواياته الثلاث ، وهي تيمور وفوست واليهودي من مالطة .

فالقوة في تيمور هي قوة الملك والسلطان ، حيث يقول بلغة الوثنية إن

الأرباب فى السماء ليس لها من المجد ما للملك على الأرض ، وليس من حظها فى عليين أن تنعم بمسرات الملوك على هذه الغبراء . إنهم يلبسون التاج المرصع باللؤلؤ والنزار ، الذى تناط به الحياة والموت ، وإنهم ليسألون ويأخذون ، وإنهم ليأمرؤن ويطاعون ! »

والقوة فى فوست هى قوة السيطرة على عناصر الطبيعة بالسحر والمعرفة ومخالفة الشيطان ، وهو القائل : « أية دنيا من الغم والمسرة ، ومن القوة والشرف والعظمة ، موعودة للباحث العليم ! كل هذا الذى يتحرك بين القطبين الساكنين سيصبح رهيناً بأمرى ، وإنما يطاع العواهل والملوك فى دولهم وأقطارهم ولا قبل لهم فيها بإرسال الريح أو شق السحاب ، ولكن السلطان الذى يملكه الحاذق بهذه الفنون ينبسط إلى حيث يمتد عقل الإنسان » .

والقوة فى اليهودى من مالطة هى قوة الرجل الذى يفعل الأعاجيب بماله ويقبض على أعنة الحوادث برشوة نضاره وجوهره ولجينه ، وما من قوة تتاح للمخلوق الأدمى فى هذه الدنيا وراء هذه القوى الثلاث : قوة الملك وقوة المعرفة وقوة المال ، اللهم إلا قوة الجمال وليس هو بالذى ينال سعى والتحصيل .

وظاهر من هذا وأشباهه أن العقل البشرى لم ينطلق من عقاله فى ذلك العصر العجيب ليطلب المعرفة فى الأوراق أو يستحيل إلى دودة من ديدان

الكتب، كما يكنى الأوربيون عن طلاب المعرفة الذين يعتزلون الحياة ويعيشون ويموتون بين الشروح والمنتون .

كلا! إنما انطلق العقل البشرى من عقاله في ذلك العصر العجيب ليقبل على كل مجهول وينعم بكل متعة وينهل ويعلم من كل مورد ويفكر ليعيش ويعيش ليفكر على السواء .

فكان معيباً على الباحث الدارس في ذلك العصر أن يغشى الجامع ولا يشارك الناس في الرقص والعزف والغناء وسائر ما يتعاطاه الخاصة والعامة من الملاهي والأسمار، وفي الثالث الرواى المعروف بالعودة من برناسس *The Return from Parnasus* الذى صنفه أدباء كامبردج يصفون العالم القح بأنه ذلك الخلق «... الذى له ملكة خاصة في السعال ورخصة في البصاق... أو الذى يوصف نفيماً بأنه ذلك الخلق الذى «لا» يحسن الخطو و«لا» الأكل النظيف و«لا» ركوب الجياد، ولا تحية المرأة وهو ناظر إلى عينيها» .

وتحدث توماس مورلى في كتابه «مقدمة الموسيقى العملية» عن عالم يذكر كيف دعوه في بعض المحافل إلى مشاركتهم فى الغناء فأنكروا منه أن يعتذر بالجهل وعدوها منه قلة أدب!... وتساءلوا: أين ياترى تربي هذا الخلق؟

ولعل الشاعر سبنسر قد وصف النموذج الأدبى قبيل ذلك حين وصف سير فيليب سدنسى *Sidney* فقال: «إنه لخفيف فى الصراع سريع فى العدو،

سديد في الرماية ، قوى في السباحة ، حسن العدة للضرب والقذف والوثب والرفع وكل ما يزاوله الرعاة من رياضة ولعب » .

\*\*\*

ولقد كانت هذه النزعات الحية تتمثل في الشعائر العامة والعادات الشعبية كما تتمثل في الشعر والآثار الأدبية .

فمن العادات التي كانت شائعة في بيئة الفقهاء والأدباء عادة البلاط الأدبي الذي كانوا يعتقدونه بعلم من الحكومة ومساهمة منها في بعض الأحيان ، فينصبون لهم أميراً يمنحونه لقب الإمارة ويقضون برئاسته بضعة أسابيع في محاكاة البلاط ومراسمه وعرض فكاهاته وأضحاحه ، ويطوفون المدينة في موكب حافل يرحب به عمدتها ويدعوه إلى وليمة فاخرة يشهدها العلية ورجال الحاشية الملكية ونساؤها ، وهي عادة مقتبسة من المغرب العربي ، ولا تزال لها بقية مشهودة في موكب سلطان الطلبة الذي يؤلفه الطلبة بالبلاد المراكشية بموافقة السلطان وتشجيعه ، ويظهر أن العادة من نشأتها الأولى عربية مغربية وصلت إلى الانجليز وغيرهم من هذا الطريق ، واسم هذه المراكب في اللغات الأوربية عربي بلفظه ومعناه . لأن كلمة مسكراد masquerade التي تدل عليه مأخوذة من كلمة مسخرة أو مسخرات ، وهي تتناول مظاهر الحكاية والسخرية ومحافل البسط والقصف وما إليها . ويقضى هذا البلاط الملفق بتنصيب بعض النبلاء وحملة الألقاب ولكنه يشترط فيمن يستحق ألقابه أن يطلع على جميع المؤلفات المشهورة ويتردد

على المسرح ويحسن نظم المقطوعات الشعرية التي تستخدم للتحية أو الفكاهة في المجالس العامة ، ثم يشترط في هذا النبيل الأديب أن يكون على رضى العصر من صفات الأدب والكياسة ، فلا يكتفى منها بالعلم والاطلاع دون الكياسة الاجتماعية والخبرة بأداب الخطاب والسلوك والاشراف على المآدب والمراقص وسهرات السمر والغناء ، وعليه — من واجباته المختلفة — أن يتصدر إحدى الولائم ويدير فيها الحديث ويتكفل بتحية المدعوين والمدعوات .

ومن دأب العصور التي تشيع فيها هذه النزعات الحية أن تتبرم بتعليم المدارس والجامعات ولا ترى فيه الكفاية لتنشئة الرجل المهذب والعامل الناجح في مطالب الحياة ، لأنهم ينشدون المملكات التي ترشحهم لارتقاء المناصب الرفيعة وتحصيل الثراء والعتاد ومزاولة الأعمال ومداورة الفرص واجتناء اللذات . ولم يكن تعليم تلك العصور كفيلا بشيء من هذا لأنه مقصور على حشو الأذهان بالنصوص والشروح وتخريج علماء الغزلة وحفاظ الدفاتر والأوراق .

وقد ينظر العالم من هؤلاء إلى رجل قليل النصيب من العلم المدرسى ولكنه مزاول مداور حول قلب بيداهاة الحياة وتجارب الأيام ، فيراه خيرا منه وأوفر نصيباً من مطالب الحياة في تلك الأيام ، وفي سائر الأيام . فيداخله الشك في العلم الذي تعلمه أو يغتر به غروراً لا يجديه في غير السلوى والعزاء ولهذا ساء ظن الأذكياء بالعلوم التي كانت تدرسها الجامعات في ذلك



الحين ، وتحدث بذلك طلاب الجامعات قبل سواهم كما جاء في رواية الحج إلى پارساس التي أنشأها أدباء جامعة كمبردج وكنوا فيها عن جامعتهم باسم پارساس القديم ، وهو الجبل اليونانى المقدس الذى كانوا يزعمون أن أبولون رب الفنون يأوى إليه مع عرائس الشعر والموسيقى والرقص والتمثيل ففى تلك الرواية شابان يقبلان على البارناس طمعا فى المجد والجاه فيلقاهما أستاذ معوز ناظم على العلم والتعليم فيثنيهما عن هذه النية الخداعة ويقول لهما : إن رب الفنون أبولون قد أفلس من الذهب والفضة إلا ذهب الكلام الموشى وفضة الروائع الناصعة ، وأما الذهب النفيس والفضة الغالية فهما من نصيب النساجين وبأئى الحلال والأخذية وسماسرة الأسواق ، وإن هوبسون — ساعى كمبردج المعروف — يجمع من المال فى ذبول اثنتى عشرة جارية ما يعز على الأستاذ أن يجمعه من مائتى كتاب .

ولم يبالغ أستاذ الرواية فى وصف بؤس العلماء وقلة جدواهم من أدب الكتب والدفاتر ، فإن المسرحية — وهى عمل نافع فى السوق — كانت تباع يومئذ بعشرة جنيهات أو دون ذلك ، وكان قصارى ما يطمع فيه الكاتب المسرحى من المورد السنوى لا يتجاوز الستين أو السبعين من الجنيهات ، ولولا الهبات التى كانت تصل إلى الشعراء والأدباء من حماة الآداب ونصرائها لهجروا هذه الصناعة أو عاشوا فى لجة ذلك الرخاء عيشة العطاء والمترفين .

ليس أقرب إلى العقل البشرى في عصر كهذا من التوجه إلى علم جديد غير علم العزلة وديدان الأوراق ، وهو العلم المفيد الذى يمتزج بالمعيشة ويعين الأفراد والأمم على الحياة ، وهذا هو لباب الفلسفة الباكونية ولباب العصر كله بعلمه وعمله وأخلاقه ومساعيه .

وكانت فى العصر بواعث أخرى أعانت طلاب العلوم والمعارف على الطموح إلى المجد الدنيوى والتطلع إلى المناصب العليا والخوض بعلمهم ومعارفهم فى غمار الحياة :

منها أن مناصب الدولة العليا كانت قبل ذلك وفقاً على كبار رجال الدين أو كبار رجال السيف من النبلاء وورثات الألقاب . فلما تحولت البلاد الانجليزية عن سلطان الكنيسة البابوية خلا مكان الكهان والكرادلة فى تلك المناصب واتسع فيها الأمل لرجال المعرفة والذكاء .

وكانت المجالس النيابية قد أخذت فى محاسبة الملوك على الضرائب ونفقات الخزانة وحقوق الامتياز المشروعة أو غير المشروعة ، فاحتاجت الحكومة إلى وزراء من رجال الفقه والمال وقادة المجالس النيابية ، وخلا كذلك مكان الأكثرين ممن كانوا يرتقون إلى كراسى الوزارة من طريق الوظائف العسكرية دون سواها .

وعمت فتنة الذهب والكسب السريع بعد فتح الطريق إلى الهند من المغرب وبعد الهجرة إلى القارة الأمريكية ، فتهافت الناس على الثراء وأصبحت القناعة عاراً على القانعين واسماً آخر من أسماء الكسل والعجز وسقوط المهمة ،

فكان الطموح والاستطلاع سمة العصر كله، وكان العلم المنشود يومئذ باباً  
من أبواب الطموح والاستطلاع .

\*\*\*

وتنبه العصر — بطبيعة ما أُشْرِحَ عليه من الطموح والاستطلاع — إلى  
أسلوب من أساليب العلم والتثقيف هو بلا ريب من أنفع الأساليب لتوسيع  
النظر وترويض العقل على حسن المقابلة بين الأمور والنفاذ إلى دوائل  
العادات والشعائر القومية ، ونعني به السياحة ، وهي أشبه أساليب التعليم  
والتهذيب بعصر الحركة والكشف واستقصاء النظر في الأرض والسماء .

فكانت الرحلة إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وهولندا وغيرها من الأقطار  
الأوربية وبعض الأقطار الشرقية فرضاً على كل فتى مستطيع من أبناء  
العلية وذوي اليسار ، وشجعها الحكومة لأنها كانت في أوائل عصر التوسع  
والاتصال بالأقطار الأجنبية، فكانت تعول أكبر التعويل على أخبار أولئك  
السائحين وهم عائدون إلى بلادهم من تلك الأقطار ، وكثيراً ما رشحتهم  
للسفارة ومناصب السلك السياسي بما تتوسم فيهم من سداد الملاحظة وسرعة  
الخاطر وصدق الغيرة الوطنية في مشاهداتهم الخارجية .

وكان أبناء الأمة الانجليزية يكبرون أولئك السائحين ويهتمونهم بالترفع  
والحديقة في نقد عادات البلاد وتكالف المعيشة على غير السنن التي ألفوها  
من قديم . وهو اتهام لا يخلو من الإكبار أو من الاعتراف بما للسياحة من

قدرة على تحسين العادات وإقناع السائحين بارتفاعهم عن البيئة التي درجوا عليها قبل التنقل في مختلف الأقطار .

هذه وأمثالها هي أساليب العصر في التعليم ومباشرة الحياة ، لأنه كما أسلفنا عصر طموح واستطلاع . ولكنها في الواقع لم تكن لتروج في عصر من العصور ما لم تكن فيها موافقةً لخلائق السكان ومجاراةً لثقافتهم الحية التي فرضتها عليهم طبيعة المكان ، فلم يعرف عن سكان الجزر البريطانية قط في عصر من العصور أنهم جنحوا إلى المعيشة الراكدة وتعلقوا بالمعارف النظرية والدراسات الكلامية التي تنزل بصاحبها عن معتك الحياة ، ولكنهم نشأوا على الملاحة والصيد واللعب في المروج الفيح والمرانة على الفروسية وفنون الرياضة ، والتأهب لبرد الشتاء بحجارة العمل وحركة الأعضاء ، وهياتهم هذه النشأة لتلبية مطالب العصر الذي وسيم قبل سائر العصور بسمة الطموح والاستطلاع .

\*\*\*

وكل أولئك لم يكن ليغنى شيئاً لو لم يكن طموح الفكر منطلقاً إلى مراميه بغير عائق من حجر ذوى السلطان ، سواء كانوا من رجال الحكم أو من رجال الكنيسة .

وقد انطلق طموح الفكر إلى مراميه في ذلك العصر بغير عائق من هذا السلطان أو ذاك ، لأن الكنيسة كانت مشغولة بالدفاع عن وجودها فترة طويلة ولم تنزل في هذا الشاغل حتى تغلب عليها سلطان التاج والحكومة النيابية فاستكانت في حدودها إلى حين ، وشاء عصر

الطموح أن تتجرد الكنيسة من الرجال الأشداء الذين يسيطون مشيئتهم بقوة العارضة ومضاء العزيمة وسعة الخيلة ولو لم يكن لهم سلطان من الوظيفة أو الصفة الدينية ، لأن معيشة الكنيسة الوادعة وأجورها القاعة لم تكن في ذلك العصر مما يغري أمثال أولئك الرجال الأقوياء بالركون إليها والبقاء فيها . فمن بقي في الكنيسة يومئذ فهو غير ذى طموح وغير ذى عزيمة ، ومن كان كذلك لم يخش منه الحجر على حرية الفكر ولا الوقوف في وجه التيار وهو في أوائله جارف عنيف

أما سلطان الحكومة فقد كانت له رقابة على الكتب والمطبوعات ، ولكنها لم تكن من الصرامة والضييق بحيث تحول بين الكتاب وإظهار ما يكتبون ، ولما كانت الحكومة تلتنف إلى حملات الكتاب حتى تكون قد صدرت من المطبعة وتداولتها الأيدي ولغظ بها الناس وكان لها الأثر المحذور الذي يستوجب الانتفات . فإذا صدر الكتاب من المطبعة مشحونا بما شاء صاحبه من التنديد والتشهير ولم يلغظ به أحد ولا ثارت حوله الضجة المحذورة فكثيراً ما تغفل عنه الحكومة أو تتغافل عنه ثم تهمل التأليف والمؤلف كما أهملتهما جمهرة القراء

\*\*\*

على أنه كان عصرًا من عصور التاريخ يسرى عليه ما يسرى على جميع العصور . فما من عصر من العصور في تاريخ الإنسان خلا كل الخلو من بعض عوامل الضعف والنكسة أو بعض عوامل التهيؤ للانتقال والتبديل .

ولم يكتب لعصرها كون شذوذ عن هذه القاعدة التي لا شذوذ فيها . فقد  
كنت فيه عوامل شتى للتبدل والانتقال ، وجاء بعضها من القوة والطموح  
كما جاء بعضها من النكسة والجمود

فازداد سلطان التاج بعد الغلبة على الكنيسة والغلبة على نظراء الدولة  
من الأمم الأجنبية ، وخيل إلى أنصار الحكم المطلق أنهم قادرون على  
إطلاق ما تقيد منه وتوسيع ما ضاق من حدوده . فجمعوا إليهم الأنصار  
وأكثروا لهم الرشى والهبات ، وكلفهم ذلك طلب المال وإرهاق الرعية  
بالضرائب والأتاوات ، وليس إلى كسب الأنصار في عصر كذلك العصر  
من سبيل بغير العطاء الجزيل ، وليس لهذا الأرهاق من مغبة غير النعمة  
قالتورة والانتقاض

وكان قمع الكنيسة على كره من الأتقياء المنتطسين وهم غير قليلين  
في البلاد الانجليزية ، ولعلمهم كانوا يطيقون هذا القمع لو حسنت الأخلاق  
الدينية وروعيت الآداب المسيحية ، ولكنهم نظروا فيما حولهم فأنكروا  
الترف والبذخ والتهافت على المتعة والمغالاة بالحطام والاباحة في مغامسة  
الذات ، فقرنوا بين ذلك وبين قمع الكنيسة وحسبوا أن الأمر محتاج  
في تقويمه إلى حماسة دينية وتنطس شديد في التحريم والتحليل ، فجاءت  
ثورة المنتطهرين مشفوعة بثورة المتمردين على المستبدين

وجاء الطموح والفتوح بنظام جديد في توزيع الثروة ، فاختلف النظام



القديم وتصدعت أركان البناء العريق ، وكل اختلال فلا مناص فيه من شكاية وقلق واستياء .

وغلا الناس في الطموح فعرض لهم ما يعرض لكل غلو في الرجاء من خيبة وصدمة واتهام للواقع وطلب للتبديل .

فكان الطموح في عنفوانه ، وكانت هذه العوامل الكامنة في بدايتها ، ولكنها لم تحتجب عن نديهة الشعر والحكمة في زمانها . فتراثت في وساوس هملت ونقمة تيمون ويأس لير كما تخيلها شكسبير ، وتراثت في تلميح بأكون إلى القلاقل والثورات خلال مقالاته وفي أطواء صفحاته التاريخية .

وجملة ما يقال عنه أنه كان عصراً لا يوجد في عصور التاريخ ما هو أولى منه بتخريج بأكون . لأننا نلمس مراجع العصر في أخلاقه كما نلمسها في أفكاره وكتبه ، فهو عصر يصدف عن علم النظر والعزلة ويقبل على علم المزاولة والقوة ، ويأنف من التسليم بكل شيء ويتشوف إلى تجربة كل شيء والتذوق من كل شيء ، ويركب كل مركب في سبيل الكشف والاستطلاع ويستسهل كل عسير في سبيل المال والمتاع . وكذلك كان بأكون الذي جرب العلم والحياة واستباح في سبيل المال والمتعب ما لا يباح .

## نشأة باكون

كان عصر الرشد — عصر باكون — عاملاً مهماً في توجيه سيرته وإخراج فلسفته ، ولكنه لم يكن العامل الوحيد في هذا ولا ذلك . بل أعانه على الأقل عاملان آخران : بنيته وبيته .

فلم يكن الرجل قط من أصحاب الخلق الوثيق والبنيان الركين ، سواء في صباه أو بعد صباه ، ولم يتفق له ما اتفق لكثيرين غيره من تصحيح بنيتهم بعد الشعور بالهزال أو التوعك في إبان الشباب .

وكانت أمه تحذر أخاه الأكبر — أتنوني — أن يجذو في معيشتة حذو أخيه الأصغر ، وتوصيه أن يذهب إلى الصلاة مرتين كل يوم ولا يقتدى بأخيه الذي يهمل هذا الجانب ولا يقوم بفرائضه ، وتقول إنها تحسب ضعف الهضم عنده آتياً من اختلال مواعيده واضطراب عاداته ، وذهابه مبكراً إلى الفراش ثم سهره على التفكير والقراءة ، ثم بقائه في فراشه طويلاً بعد تيقظ الناس في الصباح .

وإذا ضعفت البنية واشتد الطموح وتفوق الذكاء فالطريق مرسوم : طريق الظهور في ميدان الفكر الهادىء والحياة الوادعة والمناصب السلسلة المؤاتية ، لا طريق المغامرات العنيفة والشهوات الجامحة والصراع المرهوب .

ويبدو من سيرة باكون أن ضعف بنيته قد تناول شهوات جسده فملكها ولم تملكه ، وعاش حياته كلها ولم تغلبه قط نزوة من نزوات الشباب أو دسيسة من دسائس الهوى في الكهولة والشيخوخة ، وتوجه به عصر المتاع بالحياة إلى ناحية من نواحي هذا المتاع لا يعوقها ضعف البنية ، وهي ناحية الواجهة والبذخ والرئاسة المرموقة بالأنظار . وربما كان مصيباً حين وصف نفسه في أوائل شبابه فقال من خطابه إلى رئيس الوزراء : « إنتى أعترف بأنتى على قدر اتساع مطامعى الفكرية تعتدل بى مطامعى المدنية » ويقصد بها ما نسميه اليوم بالمطامع السياسية والمظاهر الاجتماعية .

أما العامل الآخر وهو بيته فأثره في حياته كبير طويل الأمد سواء بالوراثة أو بالتلقين والاختبار .

ولد بلندن في أوائل سنة ١٥٦١ ، في بيت من بيوت الرئاسة من جانبي أبيه وأمه ، فكان أبوه السير نيقولاس باكون حامل أختام الملكة في عهد اليبابات ، وكانت أمه بنت السير أنتونى كوك الذى كان مربيّاً لادوارد السادس وركناً من أركان الإصلاح الدينى في زمانه ، وكانت سيدة مثقفة تحسن اللاتينية واليونانية وتتشيع لمذهب كلثن وتغلو في التشبت بآراء المتطهرين والمنتنطين الذين يمتنون التيسير والسماحة في مسائل الدين .

فكان تأثير هذه النشأة الدينية مزدوجاً في سيرة باكون وتفكيره : بعضه في اتجاه بيته وبعضه مناقض لهذا الاتجاه .

فالبحت في مسائل الدين وحقائق الإيمان وأصول الجزاء والثواب كانت

باباً مطروقاً — بطبيعة الحال — في ذلك البيت خلال تلك الفترة التي كثرت فيها المنازعات بين النحل والمذاهب الدينية ، فنشأ باكون في صباه معوّد الذهن على البحث في هذه الأمور وما يتصل بها ويجرى في مجراها . وكان الغلو في التنطس بقية من بقايا عصر مضى لا تطرد مع النزعة الغالبة في عصر الطموح والاستطلاع والتهافت على المال والمتاع . فلم يكن لهذا التنطس البيتي ثبات في وجه العصر وجمحاته ودواعيه ، ولعله كان من شأنه أن يضاعف الاندفاع مع العصر في كل ما يقتضيه من غواية وكل ما تتسع له القدرة والمزاج من مجارة .

وكتب على باكون أن يتلقى أثراً آخر من بيته وذوى قرباه يخيل إلينا أنه أبلغ الآثار المكسوبة في توجيه أخلاقه وإبراز كوامنه وتغليب أطوار مزاجه . فإنه لقي العقبة الكبرى، بل العقبات الكبار جميعاً من ذوى قرباه ، فكانت الوزارة في أيديهم والبلاط رهناً بمشورتهم أو غير معرض عن توسلهم ورجائهم ، وكان للناشئ باكون أن يطمع بحق في معاونتهم وكلاءتهم ويصعد إلى أرفع المراتب بأعينهم وعلى أيديهم ، ولكنهم صدموه في آماله ولم يزالوا يصدّمونه من عنفوان صباه إلى أن شارف الكهولة ، وبلغ من مناواتهم إياه أنهم كانوا لا يساعدونه ولا يتركون غيرهم يساعده بما يستطيع . فوقفوا له بالمرصاد كأنهم ألد الأعداء ، وشوهوا عقيدته في الناس وفي استقامة الأخلاق من حيث يشعر ولا يشعر ومن حيث يشعرون ولا يشعرون .

أرسل فرنسيس إلى كامبردج وهو في الثانية عشرة من عمره ، وكان يتردد على أبيه في البلاط فكانت الملكة تداعبه كلما رأته وتدعوه باسم « حامل أختامها الصغير » فكان ذلك مما يعلى له في الثقة بالارتقاء إلى أرفع المناصب يوم يحين أوانها ، وقد لاح له في بادىء الأمر أنه جد قريب .

ففي السادسة عشرة ترقى في سلك طلاب العلم إلى طبقة الراشدين أو الأقدمين كما كانوا يسمونهم في ذلك الحين ، وفتح له أول باب من أبواب المناصب أو أبواب العلم السياسى الذى يتزودون به يومئذ لتلك المناصب ، فذهب إلى باريس في صحبة السير أمياس پوليت Amyas Paulet سفير إنجلترا لدى البلاط الفرنسى ، وتنقل بين المدن الفرنسية تنقل الدارس المستفيد ، ومضت عليه قرابة ثلاث سنوات وهو يتهيأ ويتحضر للترقى في مناصب الدولة بمعونة أبيه ، ولكنه فوجيء بموته وهو على أشد ما يكون ثقة بمعونته وحاجة إلى الاعتماد عليه . فمات أبوه سنة ١٥٧٩ وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وعوجل بالموت قبل أن ينجز لولده ما كان يفكر فيه من أمر توظيفه وأمر ميراثه ، فقد كان في نيته أن يوصى له بضبعة تغنيه أو تكفيه وتتيح له أن يظهر بين أقرانه بالمظهر الذى يرضيه . فأصبح فرنسيس بعد موته خلواً من الوظيفة المأمولة وخلواً من الميراث الموعود ، إلا القليل الذى يقع من نصيب الولد الثانى فى بلاد الانجليز .

وكان اللورد برجلى Burghly رئيس الوزراء من أقرب ذويه ، فألقى اعتماداً عليه ووثق من أخذه بيده فى مراتب الدولة مرتبة بعد مرتبة ومقاماً

فوق مقام ، ولكنه لم يلبث أن تطامن في رجائه وكفكف من غلوائه ، وعلم أنه الطريق الموصل العسير وليس كما كان يحسبه بالطريق المهد اليسير .  
وأعاد الرجاء كرة بعد كرة ، وأفضى إلى قريبه بغاية ما يرجوه لو شاء أن يصغى إليه ، وهو منصب معتدل المورد يعينه على الدرس ويكفيه لنفقة أمثاله . فوعده بوظيفة كاتب المجلس الخاص بعد خلوها ، وهي قلما تخلو مرة في كل عشرين سنة !

ويحار المؤرخون في تعليل هذا العداة العجيب الذي لا يعرف له سبب ، ولم ينقل من كلامه باكون ولا كلام أقربائه ما يفسره ويبطل الحيرة فيه ، فالذين يحسنون الظن باللورد برجلي يردونه إلى شكه في ولاء فرنسيس واعتقاده — من لمحات أخلاقه في صباه — أنه ليس بالولى الذي يركن إليه ويؤتمن على صنيعه ، ويضاف إلى ذلك سوء ظن الساسة بأصحاب الأرقام وعشاق الكتب والدروس ونظرتهم إليهم — فطرةً — تلك النظرة التي تترج فيها السخرية بالارتياب .

والذين يسيئون الظن برئيس الوزارة يعزون عداة المستور لقريبه الناشء إلى خوفه من منافسته لولده روبرت وهو من أقران فرنسيس في السن والدراسة ، ولا يخفى على الوالد الفطن فرق ما بينه وبين فرنسيس في الذكاء والحيلة وذرائع الوصول .

وأياً كان سر هذا العداة فقد علم الحكيم الصغير بعد قليل أن المساعدة الثانوية هي قصارى ما يرجوه من أقربائه ووزراء زمانه . فهم لا يرضون عليه



بالمساعدة في أعمال المحاماة أو الانتخاب لمجلس النواب أو بسداد ديونه إذا أخرجته الدائنون ، وقد أخرجوه مرتين وساقوه إلى السجن في هاتين المرتين . فوفى روبرت دينه في المرة الثانية وقسطه عليه .

أما المناصب التي ترجى وتحشى فقد صدوه عنها وصدوا من يعينه عليها من كبراء الدولة ، ولجوا في الحيلولة بينه وبينها حتى جرت بينهم وبين أنصاره في سبيلها ملاحاة عنيفة قلما تجرى بين الكبراء .

ففي سنة ١٥٨٤ دخل مجلس النواب عن ما كومب رجيس Malcombe Regis وعاد فدخله مرة ثانية نائباً عن ليفرپول سنة ١٥٨٨ وهي سنة انتصار الانجليز على الاسبان في معركة « الأرمادا » المشهورة .

وتيسرت له وظيفة « محام مستشار » لا مرتب لها ولا عمل في الحكومة ولكنها من وظائف الشرف التي يستعين الوزراء بأصحابها في تحضير بعض التهم أو ترتيب بعض القضايا أو مناقشة بعض الخصوم .

وفي سنة ١٥٩٣ خلت وظيفة النائب العام فظن بأكون أن أقرباءه لا يحولون بينه وبينها في هذه المرة ، بعد أن تمرس بالنيابة والمحاماة وشؤون القضاء برهة تحسب لمثله في ذكائه ووفرة محصوله .

فإذا هم وقوف له بالمرصاد .

وكان يؤيده في طلب هذه الوظيفة لورد اسكس Essex الفارس النبيل الجميل صديق الملكة المشهور ، وصديق العلماء والأدباء .

فاشتدت الملاحاة بينه وبين رئيس الوزراء وابنه روبرت سسل في

ترشيح باكون لتلك الوظيفة ، وغضب اسكس حين اعتذر روبرت سسل بشباب باكون وحاجة الوظيفة المطلوبه إلى لسن والدربة فقال مجبهاً له : إنك مثله في السن وأنت تشغل من اصب الدولة منصباً أرفع وأحوج إلى السن والدربة من منصب النائب العام .

وقيل غير مرة للورد اسكس وهو يلح في ترشيح باكون لذلك المنصب إنهم يدخرون له وكالة النائب العام فهي حسبه في الثانية والثلاثين من عمره وفي بداية ارتقائه لسلم المناصب الكبيرة . وخيل إلى اللورد اسكس هنيهة أنهم جادون فيما يعدون ، ولكنه ما لبث أن علم أنهم وعدوا بما ليس في اليد لأن الوكالة قد كانت مشغولة في ذلك الحين . فلما خلت بعد قليل إذا هم يرضون على صديقه بوظيفة الوكيل كما ضمنوا من قبل بوظيفة الرئيس !

وقد كان اللورد اسكس رجلاً ذكياً كريماً شريف الخصال شجاعاً مفرطاً في الشجاعة محبوباً في الجيش والأمة ، وسيم الطلعة يفتن النساء بوسامته ونخوته وعلوصيته ، ولم يكن يعاب في أخلاقه إلا بفرط الشجاعة والخيلاء وقلة الدهاء في عصر لا تصان فيه حوزة بغير الدهاء ، وكانت الملكة اليصابات تعجب بشجاعته وجماله ولكنها لا تركز إلى رأيه وتدييره ، ولعلها كانت تستريح إلى مخالفته في بعض المطالب معاندة له أو تدللا عليه لتكف من تيهه وتذكره بقيمة الزلفى لديها وتذكرى الغيرة بينه وبين منافسيه ، وتجعل رجحانه عليهم أبداً في يديها فتملكه على الدوام بهذا الزمام وكانت في نفسها موجدة على صاحبه باكون لكلمات قالها بمجلس النواب جاوز

بها حدود الصراحة التي ترضاها في مناقشة حقوق الملكة وحقوق المجالس النيابية ، وهي ولا ريب كانت تدخر وظائف الأبناء لمرضاة الآباء والأسر الكبيرة التي ينتمون إليها . فاذا كانت أسرة باكون ترضى بتأخيرها ولا ترضى بتقديمه فهي إذن في حل من تحويل الوظيفة عنه إلى الرجل الذي ترشحه أسرته وترشحه أسرة باكون على السواء ، فنغم بذلك موظفًا كفؤًا ورضى أسرتين ، ولا تخسر إلا رضى باكون وهو مأمون العداوة مرجو الخدمة في كل حين .

وكذلك انقضى العام في المنافسة على الترشيح بغير جدوى . ثم انتهت هذه المنافسة الطويلة بتعيين « ادوارد كوك » للوظيفة المطلوبة بتزكية رئيس الوزراء ورهطه وجماعة من ذوى النفوذ ، وخرج باكون من هذه المنافسة الطويلة بشيء واحد لا يحسد عليه ، وهو عداوة كوك وسوء نيته من نحوه مدى الحياة ، وقد جرت عليه هذه العداوة مصائب كثيرة منها النكبة الأخيرة التي قضت عليه .

ثم فاتته وظيفة الوكيل كما فاتته وظيفة الرئيس ، وكان كوك أشد معارضيه في هذه المرة كراهة له وتوجسًا من وكيل كان ينافسه على الرئاسة ولا يرجي منه الإخلاص في المعاونة . وساعده اللورد اسكس هنا ما استطاع كما ساعده ما استطاع في المنافسة الأولى ، فلما أخفق هنا كما أخفق هناك خجل أن يعده مرتين ولا ينجز له وعده ، وأنف أن يعجز عن تعيينه وعن تعويضه ... فوهب له ضيعة حسنة تسوّم بألف وثمانمائة جنيه وتغل للمنتفع بها ريعاً لا يستخف به في ذلك الزمان .

وانقضى عهد الملكة اليصابات التي كانت تدعوه بحامل أختامها الصغير وليس له نصيب في عهداها من الوظائف العامة التي كان يحلم بها ويتمناها كما كان يحلم بها ويتمناها كل فتى من نظرائه في عصره . اللهم إلا تلك الوظيفة الاستشارية المهمة في عالم المحاماة بغير مرتب مقدور ولا عمل معروف . وليتهم مع هذا قد حرموه هذه الوظيفة كما حرموه غيرها . إذن لسلم تاريخه من أقبح وصمة خلقية حسبت عليه .

ذلك أن اللورد اسكس نصيره ووليه قد ساءت مكانته عند الملكة في هذه الفترة وتمكن أعداؤه ومنافسوه في البلاط من الكيد له وتكدير الصفاء الذي بين الملكة وبينه ، فدبته لولاية ايرلندة في أخرج الأزمات التي مرت بتاريخ تلك البلاد ، ولم تكن سياسة الأمم الثائرة من ملكات اللورد المغامر الجسور ، فعصفت الفتنة بكل حيلة من حيله وتعمد منافسوه في البلاط أن يشلوا يديه ويعرقلوا سعيه ويقطعوا الصلة ما بينه وبين الملكة كما حاول أن ينهى إليها أمراً من الأمور .

وعاد اللورد محققاً خائباً إلى العاصمة تسبقه سمعة الفشل والغشم وسوء التدبير وقلة الولاء . فخيّل إليه أنه لا يزال بمكانته التي عهداها في قلب الملكة ونظرها ، وأبى إلا أن يقسرها على إقصاء منافسيه عن البلاط وعقابهم على الدس والتقصير في خدمة الدولة وتشجيع الفتنة . فلم تصغ الملكة إليه ولم تصفح عنه ولا غضبت على منافسيه . فجن جنونه من الغضب وعول على الثورة المسلحة لإكراه الملكة على ما يريد . ثم ناز وانهمز بعد مقاومة ليست بذات بال .

كانت ثورته بينة وكانت العقوبة عليها مقررة معروفة . ولكن الملاء  
الإنجليزي في ذلك العصر ، على كثرة ما شهد من القضايا السياسية ، لم  
يشهد قط من بينها قضية كانت أعقد ولا أغرب ولا أشد اختلافاً بين مواطنها  
وظواهرها من هذه القضية

فلم يكن أحد في البلاد الإنجليزية يريد للورد المحبوب أن يلقى جزاءه  
الذي استحقه بحكم القانون والشريعة الموروثة ، بعد استثناء أعدائه ومنافسيه  
كانت الملكة صاحبة القسم الأوفى والحق الأكبر في القصاص ، لأنها  
هي صاحبة السلطان الذي اجترأ اللورد اسكس عليه ، ولكنها مع هذا لم  
تكن تكره أن ينجو اللورد من عقابه بحجة من الحجج التي تحفظ الصور  
والأشكال . فقصارى ما كانت تتقيه أن تظهر بالوهن والخلط في صفحتها  
عن اللورد الثائر ، وأن يجترىء أحد مثل اجترائه ثم يفلت من الجزاء بغير  
علة راجحة من علل القانون أو السياسة ، فأما إذا حوكم وجاءه العفو أو  
التخفيف من قضاته ومحاميه ولم تكن هي المهمة فيه بالوهن والخلط فقد  
رضيت ورضى القانون والسياسة ، وأراحت نفسها من ذلك الندم الذي  
كانت تخشاه وترهبه وقيل إنه غام على عقلها الحصيف بعد موت اللورد  
المحكوم عليه ، فجعلها تفتش الأرض ليالى متواليات من برح الأمل ولجاجة  
اليأس والتكفير

وكان جمهور الشعب يأبى أن يدان اللورد الجميل المقدم وإن كانت  
عقوبته مما لا تختلف فيه العلية والجاهير ، ولكن أبطال الجماهير قلما يخسرون  
سمعتهم بينها بعمل من أعمال الإقدام

وكان الجيش يحبه ويعجب به ولا يسيء الظن بثورته وبدوات طبعه ،  
ويعزوها إلى الحدة والمجازفة ولا يعزوها إلى الكنود والخيانة ، ويتمنى  
لو نظر إليها قضاته بهذه العين فسرحوه بريئاً أو التمسوا له تخفيف الجزاء  
وكان النائب العام ادوارد كوك - منافس باكون - يلمح هذه  
الطوايا الملكية والشعبية فيقتصد كثيراً أو قليلاً في تقرير التهمة وتعزيز الأدلة  
وتضييق الخناق على التائر المحبوب ، ولا يزال يطاول في المحاكمة ويرخي  
الحبل ويفسح طريق النجاة ، لعله ينتهي في خاتمة المطاف إلى مخرج يرضى  
الملكة ويرضى الشعب والحق ولا يغضب القانون

وهنا اتجهت الأفكار إلى باكون صديق « اسكس » الحميم !  
فهل اتجهت الأفكار إليه لإيقاظ صديقه الحميم والدفاع عنه وتفريج  
فسحة النجاة بين يديه ؟

لا . بل لتأييد التهمة وشد الوثاق الذي أرخاه كوك أو حسبوا من  
قبل أنه سيرخيهِ !

فعمد خصوم اللورد إسكس ، إلى الرجل الوحيد الذي ينبغي له أن  
يتنحى عن هذا العمل كائناً ما كان سر الدعوة إليه ، فندبوه له وظفروا منه  
بقبوله بغير عناء .

ندبوا فرنسيس باكون لاتهام صديقه إسكس بالخيانة العظمى التي  
عقوبتها الموت . فأجاب !

ولم يحدث قط أن رجلاً من هيئة المحاماة الاستشارية ندب لمثل هذه



المهمة في قضية من قضايا السياسة العليا ، ولم يندب باكون بعد ذلك في قضية أخرى على كثرة القضايا السياسية التي أعقبت هذه القضية المشثومة .  
فلماذا ندبوه ؟ ولماذا أجاب ؟

ندبوه لأنهم علموا أن اللورد المتهم محبوب بين سواد الأمة ، فإذا جاءت تهمة من بعض أصحابه المقربين فذلك قمين أن يفت في أعضاء المتشيعين ، ويريهم أن إدانة الرجل أمر متفق عليه بين الأنصار والخصوم ، وفيه مافيه من غصة للعدو اللدود الذي يتعقبونه بالكيد والإيلام إلى الرمق الأخير ، فليس أغص للمخذول من أن يخذله أعوانه ومريدوه .

أما هو فقد أجاب الدعوة — على ما يظهر — لأنها الفرصة السانحة لتحقيق الطمع الذي عز عليه منذ سنين ، ولأنه قد برم بالناس والعهود وغشيته غاشية من التجنى على بنى آدم ، فخيّل إليه أنهم في معوتهم ومناواتهم سواء لا يخدمون إلا مآربهم ولبناتهم ولا يرضون إلا غرورهم وكبرياءهم ، وأن إسكس نفسه قد خدمه وأعانه غلبةً لخصومه واعتزازاً بمكانه ولم يخدمه للبر به والحذب عليه .

ولا نستبعد أن يدخل في حساب باكون وهو يقبل الدعوة إلى اتهام إسكس أن الحكم عليه — بالغاً ما بلغ من الصرامة — متبوع بالعمو أو بالتخفيف لا محالة ، لما يعلمه من عطف الملكة على اللورد المتهم ورغبة الأمة في الصفح عنه .

وليس مما ينسى لباكون في هذا المقام أنه قد حاول جهده أن يصلح

بين الملكة واللورد إسكس بعد أو بته بالخيبة من البلاد الإيرلندية ، وأنه  
فد حاول جهده أن يثني اللورد عن عزيمة الثورة حين هجست في نفسه هو اجسها  
وكاشف بها بعض المقرين إليه . فهذا وذاك مما يحسب لبا كون من شفاعه  
المعذرة في تلك المعابه الموصومه التي تورط فيها لغير ضرورة حازبه ، ولكنها  
معذرة لا ترض عنه الوصمه ولا تبرئه من المذمه ، وإن غناءها عنه لقليل  
كلما ذكر إلى جانبها ذلك اللدد الذي ظهر منه في محاسبه وليه ونصيره  
وتلك الجهود التي بذلها في حصر التهمه وإغلاق منافذ الرحمه ، ومنها  
الكذب المتعمد فيما يعلم هو قبل غيره أنه كذب صراح .

ففي رسائل با كون التي كان يكتبها إلى اللورد إسكس كلام كثير عن  
مكائد الحساد وفخاخ الأعداء الواقفين له بالمرصاد ، وقد كانت هذه المكائد  
عذراً يلتمسه المدافعون عن اللورد إسكس لتهمين جريمه الثورة وتمثيل  
ة في صور العداء بين الأنداد والقرناء . فطفق با كون في اتهامه يسخر  
من اللورد إسكس بالبد والاستنارة ويحسبها من المزاعم التي لا تقوم عليها بينة  
صالحه . . . حتى صر اللورد المتهم بهذه المكابرة التي لا موجب لها  
وقاطع . : إن مستر با كون في رسائله يدحض ما يقوله مستر با كون  
في اتهامه !

ثم زاد با كون على اللدد في الاتهام لدداً في تشويه السمعة بعد  
المئات ، فأساء إلى اللورد المحكوم عليه في ذكراه كما أساء إليه في حياته .  
وأتبع موته ببيان مستفيض عن غلطاته ومثالبه وما استحق به الجفوة من

مليكته ثم القضاء عليه بالموت ، وكان هذا البيان مطلوباً لتهدئة الشعب الذى تلقى نفاذ الحكم فى بطله المحبوب بالوجوم والإعراض عن البلاط وحاشيته أيما إعراض .

وقد عجب نقاد هذه القضية من نشاط باكون وبراعته القانونية ، ومن هفوات كوك وغفلته عن المآخذ الظاهرة فى تسيير الدعوى وتوجيه التهمة ، ومن أسباب عجبهم أن باكون على فضله فى العلم والأدب لم يكن ندأً لكوك فى أفانين المحاكم ومسائل القضاء ! وإنما جاء العجب من المقابلة بين متسابقين يجرى أحدهما ملء خطوه ويطلع الآخر باختياره ، ويحسب السبق بينهما على باكون ولا يحسب على مسابقه القدير المتوانى بمشيئته فى هذا المضمار . وشاءت المقادير أن ينقضى حكم الإصابات كما أسلفنا وليس لنا كون نصيب فيه من الوظائف أو الألقاب . أعله حقد منها عليه لجدته فى اتهام التائر المحبوب ؟ يجوز . وإن لم يجوز فالذى لا تشك فيه أن باكون قد عومل يومئذ معاملة البغيض المحقود عليه .

وكل ما أصابه من جزاء على جهوده المضنية فى هذه القضية حصه من الأموال التى جمعت من مصادرة أملاك التائرين ووزعت على المشتركين فى اتهامهم وإنفاذ الأحكام فيهم ، وبلغت هذه الحصه ألفاً ومائتى جنيهه هى دون ما أخذه طواعية من اللورد القليل . ولو بلغت أضعاف ذلك لما حسبت من الرزق المرء ولا من الرزق الكريم .

لا بل أصابه من جزاء على تلك الجهود ظل كثيف من المعابة قد ران

على سمعته ولا يزال يرين عليها بعد ثلاثة قرون . وأغرى به من العداوات ما تجاوز السمعة إلى الضرر في المنصب والمال ، فلم تخل نكبته الأخيرة من عقابيل هذا الخطأ الجسيم .

إن الناس لا يفهمون خيانةً من الخيانات كما يفهمون الخيانة بين الأصدقاء ، وربما دق عليهم فهم الخيانة الوطنية لالتباس الرأي فيها بالتفاصيل الفقهية التي لا يفقهونها ، أو لانطوائها في غمرة الخصومات الحزبية والعصبية المذهبية . . . بل يدق عليهم أحياناً فهم الخيانة في العرض لما يحيط بها من الاستهواء القصصى والعلاقات الشعرية أو المسرحية ، التي تبرز بأحاديت الغرام . أما خيانة الأصدقاء فهي من الخيانات المفهومة في كل بيئة وعلى كل حالة ، وعند الإنجليز خاصة يكبرون كلمة الولاء حتى يقرنوها في ألفاظهم بالإيمان ويقرنوا الكفر بمعنى من معاني « عدم الولاء » . . . فإن عجبت في أمر باكون فاعجب لسقطات الذكاء كيف تزل بصاحبها هذه الزلة تحت بروق المطامع التي هي شر من الظلام الدامس على السالكين فيه .

\*\*\*

وأقبل عهد جيمس الأول بشيء من الرجاء في استدراك ما فات علي عهد الملكة اليصابات . وقد أوشك في بدايته أن يعصف بهذا الرجاء القليل فيتصل العهدان بسلسلة من الحرمان والتسويق . لأن الملك جيمس كان يعطف على أسرة اللورد إسكس ويرغب في إقالة عثرتها واستحياء نفوذها ،

ولم يكد يستوى على عرشه حتى أحس الناس منه هذه الرغبة فانطلقت  
الألسنة من عقالها تثني على اللورد القليل وتقدح في أعدائه وأصدقائه  
المنقلين عليه . ولكن الملك جيمس كان يسلك نفسه في زمرة العلماء  
والأدباء ويجب أن يعطف عليهم عطف الزملاء على الزملاء ، وكان باكون  
قد أثبت إلى جانب ذلك أنه رجل يعوّل عليه في ساحة القضاء وقاعة مجلس  
النواب ، ويستفاد منه ما يساوى ثمن اللقب أو الوظيفة إذا التمس البلاط  
هذه الفائدة في يوم من الأيام . ولم يكد يبق في زمرة المحامين أحد من طبقة  
باكون لم ينعم عليه في مستهل العهد الجديد بلقب من ألقاب التشریف ،  
ولم يقصر باكون في الطلب ولا ترك لأحد من ذوى النفوذ مندوحة للرفض  
والاعتذار ، فكتب إلى كل ذى طالع مرجو في العهد الجديد يعرض عليه  
خدمته وولائه وصدق بلائه ، وكتب إلى قريبه روبرت سسل فيمن كتب  
إليهم يسأله الوساطة في تشريفه بلقب من الألقاب أسوة بأقرانه وأصحابه ،  
وتمهيداً للزواج بفتاة ذات مال يصلح به شأنه . ولعلها في يسارها ومنزلتها  
لا ترضاه بغير لقب وبغير مال !

وقد أنعم عليه في سنة ١٦٠٣ بلقب فارس فأصبح يدعى السير فرنسيس  
باكون ، وتوالى الانعام عليه بالألقاب حتى ارتقى إلى رتبة الفيكونت  
Viscount of St. Albans في سنة ١٦٢١ .

وترقى في الوظائف كما ترقى في الألقاب ، فتم تعيينه لوکالة النائب العام في  
سنة ١٦٠٧ ولمنصب النائب العام في سنة ١٦١٢ وارتفع في خلال ست

سنوات إلى منصب قاضى القضاة، وهو أكبر المناصب القضائية فى الدولة الانجليزية وقد جوزى بهذه الألقاب وبهذه الترقىات على خدمته للبلاط وتأىيده لامتيازاته فى مناقشات مجلس النواب : وعلى التوفىق بين المجلس والبلاط فى أزمات النزاع حول حقوق العرش وحقوق الأمة ، وإن كان توفيقاً من توفىقات المصالحة التى تقف عند الصىغ ولا تتعداها إلى الجوهر والباب .

لكنه فى مناصب القضاء قد أباح لنفسه من التزلف للبلاط ما لم يكن يستبىحه وهو نائب عن الأمة، ولعله توسع فى الزلفى وهو فى مناصب القضاء لأنه منفرد فىها عن الأصوات والآراء ، وأحجم فى زلفاه وهو نائب لأنه مقيد بأصوات المثات من النواب بين معارضىن أو مؤىدىن .

فى قضية «أولىفر سان جون» الذى أنكر على الملك حق فرض الخىرات والصدقات وحكم علىه بالسجن من أجل هذا الانكار كان باكون يتولى الاتهام والمطالبة بالعقاب !

وفى قضية القس بىشام الذى حوكم لأنه كتب موعظة مناقضة لامتيازات الملك ولم يلقها ولا اهتم بنشرها — كان باكون يساوم القضاة لىوعز إىهم بادانة ذلك الشىخ المسكىن على خلاف ما اعتقدوه .

هذه خطة ىمضى عليها الرىس المشهور زمناً طويلاً وهو آمن على منصبه من عقباها لو كان منىع الحوزة أو كان فى حصن حصىن من الشبهات والأقاوىل ... لكن باكون لم يكن كذلك فى أعمال القضاء ! كانت حوله شبهات حجة وكان حوله خصوم متر بصون . وكان إسرافه الذى يتجاوز مورده المحدود أول وأقوى هذه الشبهات .

كان موردته المحدود دون الثلاثة الآلاف من الجنيهات ، وكانت نفقاته تربي على خمسة أضعاف هذا المقدار . لأنه كان يقبل الهدايا والرشى على سنة القضاة فى ذلك الزمان ، وكان يغضى عن أتباعه ومرءوسيه لأنهم يتوسطون فى حمل الرشوة إليه .

واتفق غير مرة أنه أخذ الرشوة من طرفى الخصومة فأغضب الخصم الذى لم يحكم له وإن لم يكن له حق فى دعواه . فتألب عليه فريق من هؤلاء المدعين الموتورين ، واستمدوا الجرأة فى الاتهام من تحريض أعدائه وممالاتهم فى جمع الأدلة وتشجيع الشهود وإذكاء العيون والأرصاد . وأبى البلاط أن يحميه لأن التهم والشبهات استفاضت فى البلاد، فتهيب حماته أن يستروه ويتعرضوا لسير التحقيق والمحاكمة مخافة الاتهام بالتواطؤ والمشاركة أو الاعتراف بالافتيات على حقوق الأمة وبذل الحماية لمن يسخرونهم فى تلك السياسة .

فجرى التحقيق مجراه ، وأسفرت المحاكمة عن ثلاث وعشرين تهمة اعترف بها باكون غير التهم التى كان يعوزها الدليل القاطع والشهود المقبولون . فلم يسع قضاته النبلاء إلا أن يحكموا عليه بأقسى ما فى وسعهم من الأحكام وضاعف فى قسوة حكمهم أنهم كانوا على يقين من الاعفاء والمسامحة من جانب البلاط ، فقصوا بتغريمه أربعين ألف جنيه وسجنه فى البرج باذن الملك حتى يأمر بالافراج عنه ، وحرمانه الجلوس فى دار النيابة وولاية الوظائف العامة فى الدولة الانجليزية . فأعفاه الملك من هذه الأحكام جميعاً إلا العزل وتحريم النيابة

والولاية ، وظل هذا الحكم نافذاً حتى قضى نحبه في سنة ١٦٢٦ بعد خمس سنوات .

قال باكون في الدفاع عن نفسه : « لقد كنت أعدل قاض في الديار الانجليزية منذ خمسين سنة ، ولكنها رقابة البرلمان التي كانت أعدل رقابة عرفت قط في مدى مائتي سنة » .

وليس هذا القول في الواقع بغريب . فان قضاة باكون أثبتوا عليه الرشوة ولم يثبتوا عليه قط أنه حكم في قضية واحدة بما يخالف العدل والحقيقة ، ومن أظرف الفكاهات أن يعتذر المعتذرون للقاضي الفيلسوف بأنه كان يحكم بالعدل لأنه كان يقبل الهدايا من الطرفين وكان قبول الهدايا سنة شائعة بين جميع القضاة في أيامه ! ولكنه اعتذار يستحق أن يقال لفكاهته وطرافته إن لم يكن للحق الذي فيه !

\*\*\*

ذلك موجز من سيرة باكون في نشأته المدنية كما كان يسميها ، أو نشأة المطامع والمناصب والألقاب ، وتلحق بها نشأته البيتية بعد الزواج لأنها لم تكن في الواقع إلا خطوة من خطوات هذا الطريق ومظهراً عنده من مظاهر البذخ والوجاهة الاجتماعية .

وتشاء المصادفات أن تتم المطابقة بين النشأتين : نشأة البيت ونشأة المجتمع كما تتم المطابقة بين النموذج الصغير والصورة الكبيرة .  
فكما خطب المنصب النافع كذلك خطب الفتاة النافعة التي يرجو من



البناء بها تيسير حاله ولو بعض التيسير، وكما توسط له اللورد اسكس في المنصب كذلك توسط له في خطبة تلك الفتاة وكتب إلى أهلها يقول: إنه لم يكن يشير على نفسه بغير ما أشار عليهم من قبول باكون لفتاتهم لو كانت الخطيبة أخته أو قريبته أو كان ذا ولاية عليها . . . وكما أخفق اسكس في خطبة المنصب أخفق كذلك في خطبة الفتاة . . . وكما سبقه منافسه ادوارد كوك إلى منصب النائب العام كذلك سبقه إلى قلب هذه الخطيبة أو إلى عقلها فتركت باكون وآثرته عليه .

وينتهي هنا الوفاق بين النموذج والصورة ويبدأ الاختلاف بينهما . فإن ادوارد كوك قد أسدى لمنافسه أجل مآثرة وأراحه من أفدح مصاب كما قال اللورد ما كولى في رسالته القيمة عن الفيلسوف ، لأنه حمل عنه البلاء الذى شقى به طول حياته ، وكانت الجائزة التى استبق إليها الندان المتنافسان ربة جسيم فى مسلاخ ربة بيت ، وهى تلك اللادى هاتون التى خاب معها باكون خيبته السعيدة

ثم تم بناؤه ( فى سنة ١٦٠٦ ) بأليس برنهام Alice Barnham بنت بعض الوجهاء وذات حظ من المال والجمال ، ولكنه لم يسعد بها كما تمنى ، وإن لم يشق بها شقاء منافسه بنصيبه ! وتبين من وصيته ما كان مفهوماً خلال حياته من قلق ضميره وقلة اطمئنانه لهذا الزواج وكان يوم الزفاف معرضاً لصفات باكون التى لازمته طول حياته فى سيرته الاجتماعية ، وهى البذخ والإسراف وحب الأبهة والعلو على الأقران فى هذا

المضمار ، فذهب إلى الكنيسة هو وزوجته غارقين في حلال الحرير وحلى الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، وعاش على هذه البزة وهذه الشارة بقية أيامه إلى أن قضى نحبه في نحو الخامسة والستين ولا يبدو من وصيته أنه كان على عسر في معيشته وإن ركبتة الديون آونة بعد آونة وعده بعضهم من الفقراء بالقياس إلى منزلته ولقبه . فقد عاش في سعة ونافس الأمراء في حله وترحاله وكتب وصيته قبل أشهر من وفاته وهو يذكر جياده المظهمة ومركباته الفاخرة ويتكفل بكرسين للمحاضرة في الجامعات وبماتى جنيه في السنة للانفاق على المباحث الطبيعية .

ونحن نكتفي بالموجز المفيد من نشأته المدنية لأنها ولا ريب هي الصفحة التي يستريح القارئ إلى الإسراع بطيها في سجل هذه الحياة الحافلة . ومتى طويت هذه الصفحة فليس في السجل كله إلا ما هو جدير بالنشر والإعجاب والتذكار ، إذ ليس في السجل كله بعد ذلك إلا الأمانة التي لا تعدلها أمانة في خدمة العلم ونصح بني الإنسان ، وليس بين حكام الأرض من يعرض لنا في هذا الباب صفحة هي أنصع وأخلد من صفحة هذا الحكيم الذي جمع الحكمة كلها في قلمه وضيعها كلها في تصرفه وعيشه .

فكانت غيرته الصادقة في ميدان البحث والعلم على قدر تفريطه الخادع في ميدان الجاه والمال ، وكان حبه للحق وهو يفكر ويكتب على قدر هوان الحق عليه وهو يعالج العيش ويزاول مراققه ومرافق الناس .

فمنذ الصبا الباكر نشأ هذا الرجل العجيب — أو الرجل المزدوج كما

قال بعض ناقديه — نشأة عالم أمين خلق لتمحيص الحقيقة العلمية دون سواها . حتى لتعجب كيف اتسعت هذه الطبيعة لتلك النقائص التي لا تحميك بها إلا خلقة منعزلة عن العلوم والتفكير في العلوم .

\*\*\*

كان في العاشرة من عمره يفتح على الدنيا عيني عالم صغير ، وانسل يوماً من بين رفقته اللاعبين إلى قبو في حقول سان جيمس يسمع منه صداد العجيب ويتقصاه ويسأل عن معناه ، وشغل منذ الثانية عشرة بحيل الحواة والمشعوذين لما فيها من المشابهة للسحر والعلم والصناعة في وقت واحد ، وفرت سليقته وهو دون السادسة عشرة من تعليم الجامعات الذي كانوا يعزونه يومئذ إلى آراء أرسطو وهو من أكثرها براء ، وفصل القول ولما يبلغ الثامنة عشرة في مشكلات أوربا السياسية ذلك التفصيل الذي يعي عقول بعض الكهول ممن لم يرزقوا تلك الفطنة وذلك الإلهام . ولم يقنع وهو في الثلاثين بما دون تبديل الأسس العلمية والفلسفية جميعاً كما كانوا يستقرون عليها في تلك العصور . فظفق يفكر ويعيد التفكير في قسطاس شامل لجميع المعارف البشرية التي كانت معروفة يومئذ والتي كان يرجي أن تعرف بالقياس على ذلك القسطاس . وسماه ذلك الاسم الفخم الذي يشير إلى آفاقه ومراميه وهو « البناء الأعظم للفلسفة الصادقة » . . . . . وظهر الجزء الأول منه ( في سنة ١٦٠٥ ) باسم ترقية المعرفة أو التعليم ، ثم وسعه وتممه وأضاف إليه وأصدر منه نسخة لاتينية في سنة ١٦٢٣ ، وظهر الجزء الثاني من هذا السفر

الضخم باسم القانون الجديد أو القياس الجديد Novum Organum وهو مرجع فلسفته الأكبر بين مراجعه الأخرى ، ومنها شذرات لم تستوعب موضوعها لأنها أكبر من أن يضطلع بها جهد رجل واحد في ذلك الزمان الذي يصعب فيه التعاون العلمى الميسور في عصرنا الحديث . فقضى عليه أن يفارق « البناء الأعظم » وهو ناقص الشرفات والطباق ، ولكنه على هذا كامل الدعائم والأركان .

وقدمات في ميدان العلم وهو يحمل سلاحه ولا يبالي الحيلة التي تفرضها عليه بنيته الهزيلة في مثل سنه ، فخرج في الشتاء ليحرب وقاية الثلج للأجسام الحيوانية من العفونة في جسم دجاجة مذبوحة لساعتها . فسرت إليه قشعريرة لم تمهله غير أيام ، ومات ميتة العالم وإن لم يعيش عيشته على الدوام .  
هذه النشأة — نشأة العالم — هي التي يكتب من أجلها عن فرنسيس باكون ويغتفر من أجلها عيب الرجل في نشأته الأخرى : نشأة المطامع والمناصب والألقاب .

وحق له أن يودع الدنيا « وهو يترك اسمه وذكراه للألسنة الخيِّرة ، وللأمم الغربية وللأجيال القادمة » .

وللألسنة الخيِّرة ولا جدال مقال طيب في ذكراه جدير أن يقال .

## أخلاقه

يندر جداً أن يشتهر رجل أو يرتقى سلم المناصب الرفيعة ثم لا يكون للعصر أثرٌ في أخلاقه إن لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لأخلاق عصره ، لأن الشهرة أو ارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلم يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشئيين المتجاوبين .

وأثر العصر في أخلاق باكون واضح كل الوضوح ، لأنه لم ينفرد فيه بداهةً بحب الظهور ولا بالتهافت على المال والحطام ، ولم يعرف عنه شئ من ذلك إلا وقد عرف مثله عن قرنائته ونظرائه ومن هم فوقه ومن هم دونه وحسبنا أن الثورة التي نشبت بعد زمانه بأقل من قرن واحد إنما نشبت لأن الملوك كانوا يفرطون في طلب المال ويرهقون الرعية بالضرائب والإتاوات . . . فلم يكن إذن في ذلك العصر من يتعفف عن جمع المال والمجازفة بالعواقب في هذا السبيل ، سيان في ذلك من رزقوه أو لم يرزقوه ، وسيان في ذلك صاحب المكان الأول وصاحب المكان الأخير .

وليس باكون بدعاً في هذه الخليقة ، وإن جنت عليه الشهرة فحفظت نقائصه ولم تحفظ نقائص المئات ممن يماثلونه في الأقدار والأخطار .

وربما كان للعصر أثر آخر في أخلاقه من جانب يخصه ولا يعم نظراءه في

المنصب والمكانة . فإنه قد كان ولا جدال أكبر أبناء أمته في ذلك العصر عقلاً وأثبتهم نظراً وأقدرهم على فهم مرامي القوام وأطوار الأقوام . فدعاه اليقين من صوابه في هذه الشؤون إلى إسداء النصح طواعية لكل من يملك تصريفها ويقبض على مقاليدها . فكتب نصائحها إلى الملكة اليصابات في سياسة الكنيسة والشعب والنواب ، وكتب نصائحها إلى الملك جيمس في السياسة الأوربية والسياسة الداخلية ، ومخض النصح للورد أسكس والورد بكنجهام والورد سالسبرى في مسائلهم ومسائل الأمة ، فكان من العجب أنهم أعرضوا عنه وأصموا آذانهم عن نصحه ولم يقبلوا منه إلا الملق والنفاق . ومن دأب هذه الصدمات في النفوس التي لا تقوى عليها أن تضعف عندها قيمة النصح والإخلاص وتغريها بالغش ومجاراة الأهواء . . . . . ففي هذه على الأقل جدوى لمن يغش ويمجاري أهواء الأعلياء ، وأما النصح الخالص فقد يلوح لهم أنه لا جدوى فيه للناصح ولا للمنصوح ، حيثما تعرض الأسماع وتجمح الأهواء .

ففي هذه الخلائق وما شاكلها كان عذراً باكون ذنب عصره ، أو كان عذره أن ذنوبه هي ذنوب مئات وألوف ، ولم يكن تجنبها من اليسير عليه ، وماذا تقول في عصر كان اسم مكيا في فيه أشهر الأسماء بين حكماء السياسة ومعلمي الأمراء والوزراء ؟

لكن الأخلاق لا ترجع كلها إلى العصور ، حتى ما كان منها سمة من سمات تلك العصور ، لأن الإنسان يأخذ منها أو يدع على حسب طبعه

الموروث أو الأصيل فيه ، وقد ينبذها كلها ويثور عليها لفرط المناقضة بينه وبينها كلما بلغت هذه المناقضة حداً يتعذر فيه التوفيق .  
وبما كون كان فيه جرثومة الخلق الذي أنماه العصر وأرسخ جذوره ، وكان فيه مع هذا ضعف مقاومة وقلة جلد وإشفاق من مأزق العراك والمجازفة ، وكل أولئك مما يعجل به إلى الاستسلام ويزين له سلوك السهول دون الوعور .

ونحسبه قد ورث هذه الطبيعة من أبيه ، لأن أباه كان يتخذ له شعاراً لاتينياً يكتبه على باب بيته فخواه أن الاعتدال أبقى ، وكان يشفق في سياسته من المخاطر ولو كان من ورائها كبار المغام . فلبث في منصبه نيافاً وعشرين سنة لاجتنابه المقاحم التي تنزل الأقدام في ذلك العصر القلب وذلك البلاط المحشو بالدسائس والمنافسات .

ويبدو لنا أن النوازع الحيوية كلها في طبيعة باكون لم تبلغ من القوة والامتلاء مبلغاً يدفعه إلى المقاومة والمجازفة في أي مطلب ، وقد نرد إلى ذلك ولعله بالأبهة والمواكب والأزياء وكل ما يلفت الأنظار ، فالغالب في هذا الولع أنه يشغل في النفس مكان اللذات الحيوية والشهوات العارمة على سبيل التعويض في الشعور . فإذا فاته سرور الشعور بنفسه أحب أن يعوضه بسرور من قبيله ، وهو شعور الناس به واعتقادهم فيه الغبطة والاستمتاع . ويعزز عندنا هذا الظن أنه لم تذكر له علاقة بالنساء على شيوع العلاقات الغرامية في زمانه ، ولم تكن له سعادة بالزواج ولا بالذرية ، ولم يشتهر عنه

قط شغف بطعام أو شراب ، فطلب المال عنده ضرورة لطلب المظاهر الخلابه ، وطلب المظاهر الخلابه عنده ضرورة لتعويض الشعور باللذات والشهوات ، وكل أولئك له حافز من عادات الزمن ومغرياته لا تسهل مقاومته على المستعد للمقاومة ، فضلا عن يشفق منها ويتعمد اجتنابها .

فالجهد ثقيل على طبع باكون سواء في الخيرات أو في الشرور ، وحب الإغفاء والمعافاة صارف له عن تكليف نفسه ما لا يطيق ، ولهذا كان ينصح بالخير ثم ينصح بغيره إذا لم يقبلوه منه ، وكان يؤثر السلم والمسألة ولا يقابل النقمة بمثها ، ولم يكن في طبعه الضغن على مسيء وإن بالغ في الإساءة إليه . فلم يحقد على الملكة اليصابات بعد موتها مع حرمانها إياه وإصرارها على إنكار حقه وتقريب منافسيه ، وكتب عنها أجمل ما يكتبه عنها مستفيد من حظوتها ورعايتها ، وليس له نفع مرجو من هذه الكتابة في عهد خلفها الذي كان لا يحبها ولا يستريح إلى الثناء عليها . وقد ندب للوصاية على تركته الأدبية رجلا كان يرميه بالاحتيال ومخادعة الدائنين ، وهو الأسقف وليامز عدوه في محنته وصديقه قبيل موته بأعوام قليلة . فليس من خلقه الاضرار المقصود ولو بأعدائه وثالبه .

ويصعب أن يقال إنه كانت له شرور كبيرة من شرور الطبائع الجارمة والخلائق الضارية . وإنما كانت آفة كلها الطبع المغلوب لا الطبع الغلاب ، أو كان يصدر في سيئاته كلها عن إشفاق وتوجس لا عن اقتحام وصوله ، ولم تحص عليه سيئة واحدة تخرج عن هذا الطراز من السيئات .



فأشهر أخطائه المسجلة عليه هي حادثة إسكس ومسألة الرشوة واتضاعه الشائن لاسترضاء بكنجهام .

وفي حادثة إسكس كان الباعث الأكبر له هو الإشفاق من إغضاب الأقوياء . واغتنام الفرصة لبلوغ الرجاء ، ويساق له مساق العذر أنه لم يتقيد بخدمة صديقه وحده حين أحسن إليه هذا بالوصايا والهبات ، بل صارحه بأن الوفاء له على سنة رجال القانون يقتضى العدل فى الوفاء للدولة والتاج وأقطاب البلاد ، فكتب له من بداية الأمر رسالة يقول فيها : « مولاي ! إنى أرى أنتى أدين لك بالوفاء وأضع يدي على أرض من هبة يديك . ولكن أتعلم يا مولاي كيف يجرى عهد الوفاء فى عرف القانون ؟ إنه يكون أبداً برعاية الولاء للتاج ونبلائه الآخرين . ومن ثم لا يسعنى يا مولاي أن أكون لك أكثر مما كنت . . . » ثم يساق له بعد هذا مساق العذر أنه حذر صديقه من ولاية إيرلنده لأنها تبعده من البلاط وتمهد لأعدائه سبيل الوقعة بينه وبين الملكة فى غيابه ، ولا أمل له فى إخضاع الأيرلنديين المتمردين لأنه سيلقى منهم ما لقيه يوليوس قيصر من الغالين والبريطان والجرمان . . . قيل إنه نصح له بهذه النصيحة ثم أنس منه الرغبة الشديدة فى الولاية فأدركته طبيعة الإشفاق أن يفقد مودة الرجل وحسن ظنه ، فعدل عن التحذير إلى الإغراء وكتب له يقول إنه لكفيل بتتمدين هؤلاء المستوحشين كما تمدن المستوحشون من قبل على أيدي قادة الرومان !

ومهما يكن من الشك فى إزجا النصيحة الأولى فالذى لا شك فيه أن باكون سعى فى الصلح بين الملكة وصديقه ثم عاجل ما استطاع أن يثنيه

عن عزمه على حمل السلاح وإكراه الملكة عنوة في ميدان القتال . ثم كان له أمل — بل كانت له ثقة — في عفو الملكة عن ذلك الصديق ، لما ذاع وشاع بين الخاصة والعامة من إعجابها به وإعزازها إياه .

أما الرشوة فقد كانت شائعة بين قضاة زمانه ، وكانت كالهدايا التي يتبادلها أصحاب المصالح المشتركة وإن لم تكن مباحة في القانون ، ويساق له مساق العذر كما قدمنا أنه كان يحكم بالعدل ولم يثبت عليه حكم واحد بالظلم مع ثبوت الرشوة عليه في نيف وعشرين قضية .

وأضعف ما يعاب به خنوعه المزرى للورد بكنجهام حين نعى إليه أنه غاضب عليه . فذهب إلى قصره يومين متواليين ولبث طوال الوقت في حجرة الانتظار بين الخدم والأتباع ، وارتضى لنفسه وهو شيخ وقور وموظف من أكبر موظفي الدولة أن يخرج على ركبته أمام الفتى المتعجرف ليهوى على قدمه فيقبلها . . . . . ويقسم لانهبض من مجثمه الدليل حتى يسمع من اللورد كلمة الغفران ! وكل ذلك لأن اللورد بكنجهام كان يبحث لأخيه عن زوجة غنية فوق اختياره على بنت إدوارد كوك منافس باكون القديم ، ورضى الأب ونفرت الأم من هذا الزواج ، فأعان باكون الأم على زوجها وأوعز إلى النائب العام أن يؤيد حقها . ثم اتصل به أن هذا القران « المالى » يهيم للورد بكنجهام أقرب المقرين إلى الملك جيمس وصاحب الكلمة النافذة في البلاط ، فأسرع إلى الزوجة ينفض يديه من مساعدتها ويبلغها أنه لا يستطيع شيئاً في قضيتها ، وتراجع في قراره وأوعز إلى النائب العام بالتراجع في دعواه ، ثم لم يكفه هذا التكفير عن خطئه حتى أمعن في التذلل والخنوع ذلك الإمعان المهيمن .

ومن الإنصاف لباكون أن نذكر له فضله على أبناء عصره في أخلاقه الوطنية أو أخلاقه الدستورية . فإن الرجل لم يكن خاضعاً لآداب عصره في كل شعبة من شعب الأخلاق وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، وكان على قدر خضوعه لآداب العصر في مسائل البذخ والطمع رجلاً ممتازاً على الكثيرين من معاصريه في الآداب الوطنية أو الآداب الدستورية كما نسميها في العصر الحاضر . فلم تمنعه مداورته الفطرية أن يتخرج أشد الحرج من المساس بحقوق المجلس النيابي في صميمها ، وكل ما صنعه لمرضاة البلاط لم يتجاوز حدود المجاملة بالصيغ والعبارات أو حدود المراسم والتحيات . فلما شرعت الملكة في طلب المزيد من الامتيازات والحقوق المالية على أثر المؤامرة الأسبانية التي كُشفت في اسكوتلاندة كان باكون معارضاً لهذا الطلب وكانت معارضته المفحمة سبباً لتراجع اللوردات في اللحظة الأخيرة ، وظلت الملكة غاضبة عليه من أجل ذلك طوال حياتها ، وإن اطمعت بالرضى بين حين وحين

ولما حل جيمس أول مجلس نواب جرى انتخابه في زمانه وأراد أن يكل تقدير الضرائب إلى لجنة عليا ، يشترك فيها باكون وبعض زملائه ، لم يتوان باكون عن النصح له بالتريث والعدول عن هذا الخاطر الوييل ، وقد يقال على الجملة إنه أسدى إلى البلاط في مسائل الدستور نصائح شتى لعلها كانت مجدية في اتقاء الثورة التي تراءت نذرها في ذلك العصر لو قوبلت بالاصغاء والقبول .

وقد عرف له الناخبون هذا الفضل فأعادوا انتخابه في كل مجلس من

دوائر كثيرة في المدن والأقاليم ، وعرفه له النواب فمنحوه حقاً تفرد به بين كبار الموظفين في زمانه ، وذلك هو حق البقاء في المجلس مع قيامه بمنصب النائب العام وتحريم ذلك على من يلي هذا المنصب بعده من النواب .

وعلى كل هذا كان زملاؤه النواب أحياناً يجهلون ما يعلم ويقصرون عن النظر إلى العواقب التي يلمحها من بعيد ، فأحبطوا سعيه في التوحيد بين إنجلترا واسكوتلاندة على الرغم من ذلك الخطاب الطنان الذي ألقاه عليهم في أوائل سنة ١٦٠٧ . واشترك النواب ورجال البلاط في إحباط سعيه للتوفيق بين العرش والأمة وحسم مادة النزاع الدائم على الامتيازات والضرائب والاتاوات . وكان قد اقترح لحسم هذا النزاع أن ينزل الملك عن حقوقه الاقطاعية وأن تخصص له الدولة من خزائنها مائتي ألف جنيه كل عام ، وهذا هو الأساس الذي تم عليه الإتفاق والتوفيق بعد فوات الوقت ونزول القضاء ، ولكنهم جهلوه واستخفوا به في حينه وأبوا إلا التورط في الجرائر التي حاول أن يعفيهم منها وهم من حوله صم بكم لا يفقهون ومن عجائب التناقض في أخلاق هذا « الفيلسوف » أن حماسه الوطنية كانت تغلب حماسة ذوى الحق الأول فيها على الأقل في مسائل الفتوح والمطامع الخارجية . فكانت سياسته وطنية غالية يوم كان الملك جيمس يعضى على نهج السياسة العالمية كلما طرأت له علاقة بالدول الأخرى . وسر ذلك أن باكون كان يعتقد — كما نرى في مقالاته — أن الدول لا تستقر لها سيادة بغير النزعة العسكرية ، وأن ولاية الأمر مطالبون بإحياء هذه النزعة والتحريض عليها ، وإلا ركنت الأمم إلى

السلم والدعة وشاع فيها الجبن والتفريط ، وانتظرت ساعة الهزيمة والخضوع  
وإن طال بها أمد الانتظار

وإذا أشار مرة بالمسألة والتحكيم فإنما يشير بذلك أهبة للنزال والقتال .  
فاغتنم فرصة التمهيد للمصاهرة بين الأسترين الإنجليزية والأسبانية وبنى  
على ذلك خطة دولية رفعها إلى الملك لجمع الدول المسيحية إلى حلف عام  
وتوحيد كلمتها على مرجع واحد للتحكيم ، والتأهب بعد ذلك لمقاتلة الترك  
وتجديد الحروب الصليبية ، وكان من المعجبين بالترك لأنهم أمة حرب  
يشبون ويشيبون في ميادين القتال ، فكان يوصى بمناجزتهم وإحياء  
روح الشجاعة بمساجلتهم كما يتصدى الأقران للأقران في ساحة الصراع  
ولا ينبغي أن يفهم مما تقدم أن حماسه الدينية أو المذهبية تضارع  
حماسه الوطنية أو القومية . فإنه في الواقع إنما أوصى بهذه الخطة لأنها خطة  
وطنية تؤدي إلى سيادة قومه على القارة الأوربية وقيادتهم للدول الأخرى  
في سياستهم الخارجية ، كما تؤدي إلى إحياء حافز الحرب في طباعهم وهو  
عنده ضرورة من ضرورات السيادة والاستعلاء

أما في الدين فقد كان أقرب إلى الفلسفة منها إلى الغيرة الحماسية .  
فكان على نشأته في أسرة من المتطهرين المنتطسين يميل إلى الاعتدال بين  
المذاهب ويرى لكل مذهب محاسنه ومواقع نقصه ، وكان إذا اشتد في  
محاربة مذهب منها فإنما يشتد في ذلك لمحاربة السلطان الأجنبي والدسائس  
الخارجية ، فخارب الأساقفة والكرادلة لأنهم أتباع البابوية وأشياع الدولة

الأسبانية ، كأنه يعرف العدا في سبيل الوطن ولا يعرف العدا في سبيل الدين .

وليس في هذا ولا ذلك عجب إذا رجعنا بهما إلى أسباب عصره ، فإن حرية البحث التي غلبت على عقول المفكرين في عصر الرشد كانت تصد العقول عن مذهب التنطس والغلو في تقديس النصوص وبجح بها إلى قبول المحاسبة في العقائد الموروثة وكف الحماسة عن تقييد الفكر والضمير ، وبين هذه الحرية وبين الحماسة والغلو حائل لا غرابة فيه .

أما عصر الغلبة والفتوح وارتداد البحار والأمصار فهو عصر الفخر الوطني لطلاب الفخر في كل شيء ، وهو عصر النعرة الوطنية ومجد الأفراد والأقوام . فلا يمنع الفيلسوف أن ينشد المجد لأمته ويفخر مع الناس بفخر وطنه ، وبخاصة حين يكون المجد والفخر طلبة العلية والسواد وبغية العلماء والجهلاء أجمعين .

ومفصل القول في أخلاق با كون أنه كان ابن عصره في كل ما ينحوبه إلى الفخر والوجاهة والخيلاء ، وكان مديناً لعصره بهذه الغيرة الوطنية وإن سبق المعاصرين فيها بالنظر الصائب والرأي الحصيف ، وكان مديناً له بحب الاستطلاع والهيام بالمجهول ، وكلتا الخصلتين مما يحسب لعصره ديناً عليه . ولكنه لم يكن با كون العظيم بهذا ولا بذلك ، وإنما كان عظيماً بالشيء الذي لا يستمد من العصر ولا يضارعه فيه جميع المعاصرين ، وذلك هو العقل القدير وأمانة التفكير .

## رسالة باكون

كل رسالة في عالم الفكر أو الروح فهي رسالة تؤكد وتقرير أو رسالة توسيع وتحويل ، ويندر جداً أن نرى في عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداء لم يسبق لها تمهيد طويل .

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول : إن الرسائل الفكرية أو الروحية تسبقها رسائل من قبيلها تناول أطرافها ومبادئها وتهيء الأذهان لانتشارها والتوسع فيها ، فكل رسالة كبيرة فهي بمثابة كتاب من أجزاء متعددة تترقى من البداية إلى النهاية جزءاً بعد جزء ودرجة بعد درجة ، ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تعم الإنسانية ولدت فجأة أو خلقت خلقاً بغير سابقة تمهد لها الطريق وتهيء لها الأذهان .

ورسالة باكون ليست بدعاً بين جميع هذه الرسائل الفكرية .

فالذين يطلبون منه أن يقول شيئاً لم يقله أحد من قبله ، أو يقتحم طريقاً لم يسبقه الرواد إلى سلوكه ، إنما يطلبون منه أن يكون فرداً بغير مثيل في عالم الفكر والروح ، أو يطلبون بدعة ليس لها في العالم نظير ، لأنها بدعة الطفرة التي قيل بحقٍ إنها محال .

وتتلخص رسالة باكون في غرضين هما تحويل العلم إلى منفعة بني الإنسان

وإقامة العلم على أساس الاستقراء بعد قيامه زمنياً على أساس التقدير والقياس، لتفسير الطبيعة وتسخيرها بمطاوعة قوانينها، لا بفرض الأحكام السابقة عليها وجهلها تلك القوانين .

وكلا هذين الغرضين لم يبدعه باكون في زمانه كل الإبداع ، بل جاء عمله في كل منهما بعد تمهيد وارتياح واستطراد .

فالانتفاع بالعلم في الحياة هو الخطوة الكبرى التي خطاها عصر النهضة كله يوم فرّق بين اللاهوت والفلسفة وبين علوم الآخرة وعلوم الدنيا، ويوم عرف الناس أن العلم كله لا يدور على ما بعد الموت وأن علم السماء نفسه يعود بنا إلى الأرض لنعرف منها ما لم نكن نعرفه ونحن على متنها وبين فجاجها . . . . . وذلك علم الفلك وأثره في هداية الناس إلى حقيقة الأرض قد سبق عصر باكون رائداً في طريق المعرفة الدنيوية ورجح في منفعه بجهود رواد كثيرين .

فكان من آثار حقائق الفلك والجغرافية أن علم الناس بكرية الأرض وخرج الرواد غرباً يطلبون الشرق السحيق ، فكشفوا القارة الأمريكية وكشفوا الطرق التي تقاربها وانتفعوا بالعلم السماوي أكبر المنافع الأرضية أو المنافع الدنيوية ، وأصبحت علاقة المعرفة بالمعيشة وعلاقة الفكر بمصلحة الجسد شيئاً محسوساً يجري في الضمائر مجرى البدهاة المحفوظة ، وينتظر اللسان الذي يفهم عنه والداعية الذي يقرره في صيغة المذاهب والدراسات .



ومما نرجحه نحن أن رسالة باكون بغرضها معاً موصولة بهذه الواقعة العظمى في تاريخ الأرض والسماء .

فقد أسلفنا أن رسالته تشتمل على غرضين هما انتفاع الإنسان بالعلم وإقامة العلم على أساس الاستقراء ، بعد قيامه زمنياً على أساس القياس .

وقد كان مذهب أرسطو يخالف مذهب كوبرنيكوس في دوران الأرض ومركزها من أفلاك السماء ، فإذا كان دوران الأرض وشكلها « الكروي » قد

ثبت للعيان بالخبرة والاستقراء فالخاطر الأول الذي يرد على الذهن أن القياس عرضة للخطأ وأن اختبار الواقع هو أوجز طريق إلى العلم الصحيح

وهذا هو ابتداء الثورة على تفكير أرسطو بالحق وبغير الحق على السواء ،

ونقول « بغير الحق » لأن القياس في عرف أرسطو هو باب من أبواب

المعرفة يحتاج إلى التكميل والإتقان وليس هو المعرفة التي تطوى فيها جميع

المعارف الإنسانية كما وهم بعض الجامدين من شراحه وتابعيه ، وأن أرسطو

نفسه لعلى استعداد لأن يقول مع باكون : « إن القياس فروض والفروض

كلمات والكلمات رموز وخواطر ، فإذا التبست الخواطر فالبناء الذي يقوم

عليها مضطرب الأساس »

نعم إن أرسطو لعلى استعداد لأن يقرر في هذا المعنى ما قرره باكون

بنصه وحرفه ، وقد قرر ما يماثله وهو يبنى قواعد المنطق السليم ويفرق فيه

بين المنطق الأعوج والمنطق المستقيم ، واعتمد على الاستقراء قبل اعتماده

على القياس في مراقبة الأحياء وتمحيص الأخلاق ، فكان واضع علم

« البيولوجى » وعلم « السيكولوجى » غير مدافع بين الأقدمين ، ولم ينشأ بين المحدثين من أقام هذين العلمين على أساس أصلح من أساسهما القديم . ومهما يكن من أثر الكشف الأمريكى أو مذاهب الفلك والجغرافية فى الثورة على أرسطو وأسلوب القياس فالواقع أن خطوة باكون الطويلة فى هذا السبيل قد سبقتها خطوات قصار كان مقدوراً لها أن تنتهى إلى هذه النهاية فى وقت من الأوقات .

وجاءت الخطوة الأولى من أرسطو قبل غيره ، فإنه لم يجزم قط بكفاية التفسير الذى فسر به نظام الأفلاك ولا بصواب التقسيم الذى اتخذته للمدارات العلوية ، بل قال إنه تقسيم يوافق المشاهدات فى زمانه وقد يهتدى العقل إلى تقسيم أوفق منه إذا انكشفت له مشاهدات أخرى ، وكان أساتذة جامعة باريس فى القرن الرابع عشر ينكرون آراء أرسطو فى علم الفلك كما ينكرون أصول الحركة التى بنى عليها تقسيم الأفلاك والمدارات ، وتقدمهم فى ذلك بعض أساتذة أكسفورد الذين تلقوا علوم العرب فى المدارس الأندلسية ، وقد قال البارون كارادى فو Baron Cara oe Vaux فى الفصل الذى عقده على تراث الإسلام فى الرياضة والفلك : « إن هؤلاء العلماء كانت لهم عقول طليقة مولعة بالبحث عن الحقيقة ، فلم يجمعوا عن نقد بطليموس وصرحوا مع ابن رشد بمناقضتهم لمذهب تداخل الأفلاك وتركزها ، وإيثارهم لما هو أبسط وأقرب إلى الطبيعة ، وقرر البيرونى آناً أن النظريات الفلكية كلها نسبية ، وأنه فى الوسع كما قال ارستراخس الساموسى وسليقس

البابلي قبل كوبرنيكوس بألفي سنة ، أو كما قرر بعض الهنود في زمن لا يبلغ هذا المبلغ من القدم ، أن تنسب دورة النهار والليل إلى حركة الأرض حول محورها وأن نجعلها تدور حول الشمس في الفضاء .

\*\*\*

فمن المفروغ منه إذن أن باكون لم يكن أول من علم الناس منفعة العلم في خدمة الإنسان ولا أول من أقامه على أساس التجربة والاستقراء ، ولا يقدر ذلك في فضل رسالته لأن أصحاب الرسائل الفكرية جميعاً يصدق عليهم ما يصدق عليه .

وحسبه فضلاً أنه عرف الحقائق التي عرفها غيره ، ولكنه هو وحده قد اهتدى إلى الموضوع الحرى منها بالتوكيد والتقرير ، وبشر بالفكرة التي يستدعيها الزمن الحاضر والزمن المستقبل من بعده ، وكانت بحق طليعة الكشوف المتوالية في العلم الحديث .

ومما لاشك فيه أن باكون بالغ في تعزيز غرضيه كما يبالغ أصحاب المذاهب جميعها في ترجيح مذاهبهم وتغليبها على سواها .

فمن الناس اليوم من يتردد كثيراً في القول مع باكون بأن المنفعة غاية المعرفة الإنسانية ، وأن الأقيسة مضلة للعقل في تيه الفرض والتخمين . ولكن توكيد هذين الغرضين في زمان باكون كان من أزم الأمور ، لأن الإفراط في إهمالها كان مدعاة للإفراط في ذلك التوكيد ، ويحتاج المرء لاجرم إلى رفع الصوت طويلاً حين يطول الإعراض وتصدف الأسماع .

وقد كان الناس يحترقون الانتفاع بالعلم لاعتقادهم أن الآخرة هي محور كل علم وأن الزهد في الدنيا هو صبغة العلماء ، ومنهم من يدين في ذلك بمذهب بعض الفلاسفة النساك الذين لا ينظرون إلى الزهد من ناحيته الدينية، وعلى رأسهم فيلسوف المتشفيين فيثاغوراس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد ، فانه على اشتغاله بالسفارة السياسية كان يرى أن حياة التأمل هي حياة السعادة والكمال ، وأن أفضل الناس لا يكونون من أهل البيع والشراء ولا من السباقين في المضمار والميدان ، ولكنهم هم المفكرون والمتأملون ... وعلى هذا القول يجيب باكون فيقول إن الدنيا مسرح لا يملك الإنسان أن يتفرج عليه لأنه هم اللاعب فيه ، وإنما يقف منه موقف المتفرج ملائكة السماء .

فمن الزهد إلى مزج العلم بالدنيا مرحلة لا غنى فيها عن التوكيد والمبالغة ، وهذه هي المرحلة التي كُتب على باكون أن يتحول بالأجيال الإنسانية إليها ، وأن يببالغ في النداء بها كما يببالغ كل مناد على الضالين في الطريق .  
فجعل هجيره أن يقرر غرضاً واحداً للمعرفة الإنسانية وهو تسخير الطبيعة وتوجيه قوانينها إلى مصالح الجماعات والأفراد . وكان يقول في شيء من السخر إن المعرفة ليست بالقنبرة التي تعلو في طباق الجولتهتف وتغنى ولا تصنع شيئاً غير الهتاف والغناء ، ولكنها هي الصقر الذي يحلق في الجو ليرى موقع الفريسة وينقض إلى الأرض بين حين وحين .

وقد أشار ببناء البيوت العلمية للبحث عن قوانين الطبيعة وخصائص

المادة في البر والبحر والهواء وأغوار الأرض وأجساد الأحياء ، ووصف في كتابه « طوبى الجديدة » أو اطلانطي الجديدة بيتاً من هذه البيوت سماه بيت سليمان ، يعتبره مؤرخو العلوم قدوة لمعامل العصر الحديث المعنية بالتحليل والتطبيق ، ومثالا للمجامع أو الأكاديميات الحاضرة تحذيه ولا تتجاوز المقاصد التي رسمها في ذلك الكتاب

وسبيل الوصول إلى ذلك عنده هو إحصاء المشاهدات العامة والانتقال بها من طبقة إلى طبقة في التخصيص والتوحيد حتى تنتهي بها إلى جامعة واحدة تجمعها فيما يسميه form أي النمط أو السنّة أو النوع ، وعنده أن هذه الأنواع معدودات لا تتجاوز العشرات . وهي كما يسميها أبجدية الطبيعة التي تنحصر فيها حروفها وإن تعددت كلماتها حتى بلغت الألوف وعشرات الألوف

ولا يرى باكون بداهة أن إحصاء المشاهدات جميعاً مستطاع أو لازم للوصول إلى تقرير النمط أو السنة أو النوع ، فالاختيار هنا — على نظام من النظم المطردة — ضرورة لا محيص عنها للباحث عن حقائق العلوم من وراء المشاهدات ، وإلا كان — على حد قوله — كمن يحاول أن يحوش الصيد في أرض فضاء بغير حدود أو بغير حيز مسدود .

وطبقات الحصر والغرلة عند باكون تسمى بالجداول ، وهي ثلاثة : الجدول الأول وهو يشتمل على الأشياء التي بينها وجوه مشابهة في عوارض الظاهرة الطبيعية التي يراد البحث عنها ، والجدول الثاني وهو يشتمل على

الاختلاف بين تلك الأشياء ، والجدول الثالث وهو يشمل على المقارنة بين درجات الاختلاف زيادة ونقصاً وقوة وضعفاً ليعرف الباحث من الزيادة في بعض العوارض والنقص في بعضها أين يتجه السبب الصحيح وتكمن العلة الحقيقية . فإذا تساوى سببان في القوة والبروز فسيبيل باكون في هذه الحالة أن يرجع إلى ظاهرة أخرى لعله يصيب فيها أسباباً مقابلة ترفع اللبس وتدل على معالم الطريق ، ولهذا يسميها أسباب العالم لأنها تقف على المفترق وتشير للسالك إلى مسلكه حيث يلتبس عليه طريقان أو أكثر من طريقين .

وقد ضرب المثل بالحرارة في الجزء الثاني من كتاب القانون على طريقة المقارنة والاستثناء فقال بعنوان : « المثل على الاستثناء والرفض من طبائع نموذج الحرارة » .

( ١ ) فيما يتعلق بأشعة الشمس تستثنى طبيعة العناصر ( يريد العناصر الأربعة المعروفة عند الأقدمين ) .

( ٢ ) فيما يتعلق بالنار الشائعة — ولا سيما النار الباطنية في جوف الأرض وهي أبعد ما تكون وأشد تفرقاً عن الأجرام السماوية — تستثنى الأجرام السماوية .

( ٣ ) فيما يتعلق بالسخونة التي تسرى من مقاربة النار إلى جميع الأجسام على السواء — كالمعادن والخضر وجلود الحيوانات والماء والزيت والهواء وغيرها — تستثنى الأنسجة الدقيقة والتركيب المميز في الأجسام .

( ٤ ) فيما يتعلق بالحديد الملتهب وغيره من المعادن التي تعطى الأجسام الأخرى حرارة ولا تفقد شيئاً من وزنها ومادتها — يستثنى الانتقال أو المزج من مادة جسم آخر فيه حرارة .

( ٥ ) فيما يتعلق بالماء العالى أو الهواء الحار أو يتعلق بالمعادن والأجسام الصلبة التي تتلقى الحرارة ولكن إلى ما دون درجة الاتقاد والاحمرار تستثنى الإضاءة والمعان .

( ٦ ) فيما يتعلق بأشعة القمر وغيره من الأجرام العلوية عدا الشمس تستثنى كذلك الإضاءة والمعان .

( ٧ ) بالمقارنة بين الحديد المتقد ولهب روح الخمر حيث يظهر أن الحديد أكثر حرارة وأقل لمعاناً وأن روح الخمر أقل حرارة وأكثر لمعاناً — تستثنى كذلك الإضاءة والمعان .

( ٨ ) فيما يتعلق بالذهب المتقد والمعادن الأخرى التي اختصت بأعظم مقدار من الكثافة على الجملة تستثنى الخفة .

( ٩ ) فيما يتعلق بالهواء الذي يحس أحياناً بارداً مع خفته وقلة كثافته نستثنى كذلك الخفة .

( ١٠ ) فيما يتعلق بالحديد المتقد الذي لا يتضخم حجمه ويظل في حدوده الأولى تستثنى حركة الجسم الموضعية أو الامتدادية في الجملة .

( ١١ ) وكذلك نستثنى حركة الجسم الموضعية أو الامتدادية فيما يتعلق بالهواء المحفوظ في الأوعية الزجاجية حيث يتمدد ولا ترتفع درجة الحرارة فيه .

(١٢) فيما يتعلق بسهولة إحماء الأجسام بغير تلف أو تغير ملحوظ تستثنى طبيعة التلف أو الاتصال العنيف بطبيعة أخرى .

(١٣) فيما يتعلق بالاتفاق والتطابق بين الآثار المتشابهة التي تؤثرها الحرارة أو البرودة تستثنى حركة الجسم في الجملة سواء كانت امتدادية أو انقباضية .

(١٤) فيما يتعلق بالحرارة التي تتولد من تماس الأجسام تستثنى الطبيعة الأساسية أو الأصلية ، وأعني بالطبيعة الأساسية أو الأصلية تلك التي توجد في الأشياء مستقرة فيها ولا تنتقل إليها من طبيعة غريبة عنها .  
وهناك طبائع أخرى غير ما تقدم ، لأن هذه الجداول إنما قصد بها التمثيل ولم يقصد بها الحصر والاستيفاء .

وجميع هذه الطبائع التي ذكرت فيما تقدم ليس لها نمط الحرارة ، ويتحرر الإنسان منها جميعاً في تجارب البحث عنها . . . . »

\*\*\*

ذلك مثال لأسلوب باكون في المضاهاة والمقابلة بين العوارض المثبتة والنافية لاقضاء الأسباب الوهمية والنفاذ إلى الأسباب الصحيحة التي تعلق بها كل ظاهرة طبيعية .

وهي خطوة تسبقها في رأيه خطوة لازمة لاعداد الذهن وبراءته من عوائق البحث الصادق والملاحظة الرشيدة ، أو تخليصه من تلك الآفات التي اصطلح باكون على تسميتها بالأوثان Idols وعنى بها العقائد والموروثات



التي تنحرف به عن قصده وتميل به إلى السخف والضلالة .  
وقد أطلق عليها ألقاباً مجازية على طريقته في المزج بين صيغة العلم وصيغة  
البلاغة ، وسماها (١) أوثان القبيلة و (٢) أوثان الكهف و (٣) أوثان  
السوق و (٤) أوثان المسرح وهي تطوى في هذه العناوين الأربعة  
كل ما هنالك من بواعث الخطأ والانحراف .

(١) فأوثان القبيلة هي نزعات العقل الطبيعية التي تصور الأشياء على صورة  
سابقة لا برهان عليها من التجربة والمشاهدة ، كميل الأقدمين إلى القول  
بدوران الأفلاك في دوائر كاملة كالتي يرسمها المهندس بالبركار ، ولا مسوغ  
من التجربة ولا المشاهدة لهذه الصورة الشائعة في العقول ، أو كميل الأقدمين  
إلى القول بأن نسبة الكثافة في العناصر المزعومة كنسبة عشرة إلى واحد ،  
أو كاستراحة العقل إلى صورة من الصور وتطبيق كل شيء عليها واجتهاده  
في لي الحقائق لموافقته معرضاً عما يخالفها أو ينهبه إلى خطئه في الاستراحة  
إليها ، وهذه الأوثان — أوثان القبيلة — مما يفسر لنا ولع الإنسان بالعيافة  
والتطير وتصديق الخرافات والأكاذيب الملققة من خداع الحس أو الخيال .

(٢) وأوثان الكهف هي خلة القصور التي يبنى بها الفرد على حدة من  
جاء الوراثة أو النشأة أو علل الفطرة التي فطر عليها ، فما من إنسان إلا وهو  
محصور في كهف من هذه الكهوف يأوى إليه ولا يأذن بطروقه إلا لما يؤممه  
من الخواطر والأحاسيس والمذاهب الفكرية ، وتشمل هذه الأوثان خصائص  
الأمزجة كمزاج العالم ومزاج الفيلسوف ومزاج الناشد ومزاج الفنان ومزاج

الصانع، وكل منها مطبوع على إدراك الأمور من جانب من الجوانب والاعراض عنها إذا قابلته من غير ذلك الجانب، وفيهم السريع إلى التصديق أو السريع إلى الشك والمعتدل أو المفرط في الشعور .

( ٣ ) وأوثان السوق هي شر هذه الأوثان ، لأنها تلحق الأفكار بالكلمات التي جرت على ألسنة العامة وتداولوها بغير تمحيص ولا اقتدار على الفهم الدقيق . ومتى اجتمع الناس كما يجتمعون في السوق فهم يتبادلون الأفكار بألفاظ لم توضع للدرس والعناية بالحقيقة ، وإنما وضعت للمقايضة والمساومة والتفاهم على سفساف الأمور . فلا مناص في هذه اللغة من التشويه والاختزال .

( ٤ ) وأوثان المسرح قد تسربت إلى عقول الناس من قضايا الفلاسفة وأخطائهم في القياس والاستدلال ، فهذه النظم الفلسفية والمذاهب العقلية التي تلقيناها عن الأقدمين إن هي إلا عوالم مسرحية كعوالم الروايات التي يخلقها الشعراء للتشيل . ومن الأساليب التي ألحقها بأوثان المسرح أسلوب أرسطو الذي يصوغ القواعد على حسب الأقيسة ثم يبحث عن مصداقها في ظواهر الطبيعة ، وأسلوب أفلاطون الذي يجعل العالم المحسوس تابعاً للعالم المتخيل قبل وجوده ، وأسلوب جلبرت الذي بنى على تجاربه في المغناطيس فلسفة واسعة تحيط بالعالم كله ، وأسلوب الكيميين والتجريبيين الذين سبقوا بأكون إلى مذهب التجربة ولم يقيموه على أساس ، ولم يتخذوا له الحيلة من الخطأ والالتباس .

فإذا انطلق الذهن البشرى من عقل هذه الأوثان الأربعة ، وقارب الظواهر الطبيعية على ذلك النحو الذى انتحاه باكون من المضاهاة والمقابلة والتخصيص بعد التعميم ، فهو على ثقة من إصابة الهدف وتسجيل الحقيقة ، فهذه الطريقة على أهون ما يصفها به باكون هي كإبرة المغناطيس التى يهتدى بها الملاح فى البحار . وعجيبٌ كما قال أن تكشف الإبرة المغناطيسية للملاحة لا تكشف الإبرة الفكرية لهداية العقل والخس فى بحار الأفكار... وهذه العبارة وأشباهها من كلام باكون هي بعض الأدلة على الأثر العظيم الذى كان للكشف الأمريكى فى تفكيره ومعيشته وصوغ مذهبه وتقرير نظرتة إلى العلم ومقاصد المعرفة الإنسانية . فأثر العلم فى فتوح الملاحة شاخص بين عينيه فى كل ما كتب وما تخيل ، وكتابه عن « طوبى الجديدة » إن هو إلا محاكاة لرحلة كولبس فى عالم المجهول ، للعبور إلى شاطئ المعرفة والحكمة المتمناة .



ويعتقد باكون أن اجتناب تلك الأوثان واتباع تلك الوصايا كفيلان بتمكين كل عقل من نشدان الحقيقة العلمية والإفضاء إليها على اختلاف حظوظ العقول من الفطنة والثقافة ، كأنه قد زود العقل البشرى بمقياس واحد كمقاييس الأجسام التى يتساوى القياس بها فى كل يد وكل نظر . وقد سوغ هذا الاعتقاد لنقاد كثيرين أن يرموا أسلوب باكون بالآلية وتجاهل الملكات العقلية ، إذ الواقع أن أساليب البحث بالغة ما تبلغ من الدقة

لن تمحو الفوارق بين الذكاء والغباء والحس والبلادة والمثابرة والإهمال . ولن يزال نصيب الأملحى اليقظ الدءوب من التوفيق فى البحث عن حقائق العلم والمعرفة أعظم وأوفى من نصيب الذين لا يساؤونه فى هذه الملكات ، ولكنها على ما أسلفنا مبالغة الدعاة فى توكيد ما يبدأون بالدعوة إليه وزيادتهم التى لا مناص لهم من التفرد بها قبل استقرار المذهب و بطلان الحماسة النفسية فى تأييده والاقناع به ، ثم تأخذ تلك الزيادة فى النقصان حتى ليخشى أن يندفع المخالفون إلى الغض منه وتهوين شأنه ، كما حدث بعد ما كون بجبل واحد فى وطنه وفى غيره من الأوطان .

وليس ذلك بالغلو الوحيد فى تقرير طريقته والأنحاء على الأقيسة والقضايا المنطقية وما شا كلها . فإن التحويل على التجربة والإحصاء عند ما كون قد سول له أن يستخف بكل معرفة لا تصل إلى الذهن من طريق التجربة والإحصاء ، ومن ثم أنكر على كبار الفلكيين أن يطبقوا قضايا الرياضة على علم الفلك وما يرتبط به من المعارف الأرضية ، وهذا مع تسليمه ببعض المعارف التى تدرك بالبديهية كمعرفة الناس مثلا أن أجزاء الشئ لا تكون أكبر منه ، وأن إضافة المتساوى إلى المتفاوت ينتج عنه كم لا يتساوى ، وما يترقى من هذه الحقائق إلى منزلة القواعد الهندسية ، ولكنه كان فى انصرافه إلى طريقة التجربة يعطيها من الشأن ما يسلبه من كل طريقة أخرى ، لان الدعاة كالعشاق لا يحبون معشوقين على قوة واحدة فى المحبة .

وعلى هذا الغلو في تعظيم قدرة الطريقة التجريبية على الوصول إلى حقائق العلم لم يصل باكون إلى قانون علمي ينسب إليه ، ولهذا شك بعض ناقديه في ملكته العلمية ولم يحسبوه من عباقرة العلم الطبيعي أو عباقرة الاختراع . ولا يدعى أحد لباكون أنه اخترع صناعة أو أنه استكنه سراً من أسرار الطبيعة ، وإن كان قد تسلف مبادئ القول بالمذهب الذري في تكوين المادة وحرارة الأجسام الباردة وخصائص العناصر المتعددة ، ولكن تجريده من العبقرية شيء وقلة مخترعاته العلمية أو الصناعية شيء آخر . فإن ذهنه ولا ريب ذهن لمباح بضوء العبقرية الذي لا يخفى ، وليس هو من معدن الأذهان التي تفهم ما تفهمه بالدأب دون الطبع أو بالمحاولة التي يستطيعها جميع الناس دون الملكة التي تولد مع الانسان .

وقد أصيب باكون بالخصومة لشخصه ولكتبه سواء في حياته أو بعد مماته ، ولكن الحكم بقلة حظه من الابتكار لم ينحصر في خصومه والمنكرين عليه ، بل تعداهم إلى المعجبين به والمعنيين بشرح كتبه . فقال سبنج Spedding إنه لم يخط خطوة واحدة في الطريق التي تقدم فيها العلم تقدمه الصحيح ، وإنه كان في بحثه كمن يسلك المناهة الدائرة ، فلا يزال يتأخر كلما تقدم ليفضى إلى وجهته المقصودة . وشك أليس Ellis في إمكان الوصول من طريقة باكون إلى أسرار الطبيعة سواء على يده أو يد غيره ، بل تعدى الحكم على حظه من الابتكار نخبة المعجبين به إلى ما قاله هو عن نفسه وعن قيمة سعيه ، فإنه كان يقول إنه كمن ينفخ في البوق ولا يخوض المعركة ! وقال

في كتابه تقدم المعرفة إنه كالصوت التي تشير إلى وجهة السير ولكنها لا تستطيع السير إليها .

وأفرط الناقدون فزعموا أنه مدين بكل شيء لسابقه . . . أما أنه استفاد من سابقه كثيراً فذلك ما لا ريب فيه ولا غرابة ولا هو مما يقال عنه دون غيره من رواد العلوم والآداب ، ولكن لا ريب أيضاً في أنه « شيء جديد » إلى جانب سابقه وأن أشد المنكرين عليه لا يستطيع أن يزعم بحق أن ظهوره وعدمه يستويان . فظهور باكون شيء جديد في تاريخ الحركة الفكرية ما في ذلك جدال ، ولا يطلب من المبتكرين المفيدون في تاريخ هذه الحركة أثر غير ذلك ، على تفاوت الآثار في القوة والمقدار .

ويحضرنا هنا خاطر عبر بنا في صدد الكلام على باكون وأسلوبه التجريبي ، فخواه أنه اقتدى بعلماء العرب في تنظيم هذا الأسلوب . والذي لا نشك فيه أن سلف باكون وسميه روجرز باكون قد كان يقتدى بعلماء العرب ويصرح بذلك في مصنفاته ومحاضراته ، وأن فرنسيس باكون قد استفاد من سلفه وسميه ، كما استفاد علماء الانجليز جميعاً بعد القرن الثاني عشر من ذلك القس الغيور على أمانة العلم والتفكير . وقد أشار باكون في كتابه « طوبى الجديدة » إلى العرب وذكر فيه بعض الأسماء العربية ، ولكننا لم نجد في كتبه كلها دليلاً على استفادة مباشرة من مطالعة الكتب العربية المترجمة إلى اللغات الأوروبية ، وكل ما استفاده من هذه الكتب

فهو منقول من المصادر الأخرى كما ينقل التابعون عن السابقين ، شاعرين  
بذلك أو غير شاعرين .

\*\*\*

ولا يقال إن با كون « شىء جديد » فى تايخ الحركة الفكرية من قبيل  
الاعتراف بمكانه الملحوظ فى تلك الحركة وكفى ، ولكنه « شىء جديد »  
من قبيل النوع الذى يضاف إليه بين ذوى المكانة الملحوظة فى حركات  
الفكر البشرى عامة ، لأن نوع هذه المكانة مبهم ككلمة « الشىء »  
التي تشمل كل شىء !

ففى أى طائفة من طوائف رسل الثقافة والمعرفة نسلكه ونستبقيه ؟  
أهو فيلسوف ؟ أهو شاعر ؟ أهو عالم ؟ أهو مؤرخ ؟ أهو فقيه ؟ أهو خطيب ؟  
أهو أديب ؟ فيه من كل هؤلاء شىء وليس هو بشىء مستقل بين  
جميع هؤلاء .

فيه قبس من الفيلسوف لأنه يبحث ويعلل ويعمم ويراجع مذاهب  
الفلاسفة ويصحح منها ما يراه موضعاً للتصحيح ، ولكنه لم يخلق للفلسفة  
كما خلق لها رجل مثل فيثاغوراس فى الأقدمين أو رجل مثل كانت أو هيوم  
فى المحدثين . وقد تجنب علل الحقائق الأولى وأعفى عقله من الكد فى  
الأصول الأبدية التي شغل بها الفلاسفة من قديم الزمان ويشغلون بها إلى  
آخر الزمان . وأدركه فى ذلك ما كان يدركه دائماً من حب الدعة وإيثار  
الممكن الذى يرجى الفراغ من بحثه على وجه من الوجوه العملية النافعة ،

فأسلم عقله للإيمان الديني كما كان يفهمه كل رجل من طبقته في زمانه .  
ويحسب مؤرخوه أنه فارق الدنيا وهو يظنها بنية تاريخية لا تتجاوز من  
العمر خمسة آلاف عام على ما جاء في ظاهر نصوص التوراة .

وفيه قيس من الشاعرية لأنه يتخيل ويأنق للمعاني الجميلة ويستخدم فنون  
الجزاز ، ولكنه لم يكن بين الشعراء في طبقة ملتون أو بيرون بل في طبقة  
دریدن أو بوب ، لأنه دون هؤلاء في اشتعال النفس وحماسة الروح وجيشان  
العاطفة واتساع آفاق الخيال .

وفيه ملكة العالم ، ولكنه كما قدمنا لم يكشف قانونا من قوانين العلم ولم  
يحاول فيه محاولات العلماء المطبوعين من أمثال باستور وفراداي ، وقصارى  
ما عنده من الملكة العالمية أنه علم المشتغلين بالعلوم كيف يبحثون فيها على  
طريقته ، وقد يتركون طريقته مع هذا ويبحثون ويوفقون .

وهو مؤرخ أو كاتب في التاريخ والسير ، ولكنه لا يدرك في هذا الباب  
شأو جيبون أو بلوتارك ، ولا يزال تاريخه ضربا من التعليقات الفكرية  
التي قد تحيط بكل موضوع من موضوعات الحاضر والماضي على السواء .

وهو فقيه من فقهاء زمانه المقدمين ، ولعله في هذا الباب أقرب ما يكون  
إلى التمام والاستقلال بالقياس إلى فقه ذلك الزمان ، ولكنه هو نفسه لم  
يكن معتدلاً بمكانته من الفقه ولم يحفل بنشر قضاياه أو بحوثه القانونية  
في حياته .

وهو خطيب فصيح اللهجة حسن البيان لا يمل سامعوه الإصغاء إليه



وإن أطال ، ولكنه لو لم يصنع شيئاً غير الخطابة لما بقي له ذكر بين رسل المعرفة والبيان ، لأن خطبه جميعاً طويت قبل موته ولم تعلق بها ذاكرة أحد من سامعيه في مجلس النواب أو ساحة القضاء .

وهو أديب ولا سيما في باب الكتابة النثرية ، وعنده في هذا الباب من الشهرة المستقلة ما يغنيه في تاريخ الآداب ، ولكنه مع هذا أكبر من قدرته الأدبية وأعظم ممن يضارعونه في إيصاله المعنى وبلاغته الأسلوب .  
فهو « شىء جديد » لأنه يشترك في جميع هذه الأشياء ولا يستوعب كله في واحد منها ، ولا ينتظم مرة واحدة تحت عنوان واحد من هذه العناوين .

مثله في ذلك مثل النخبة القيمة من الجواهر فيها اللؤلؤ والياقوت والزمرد والمرجان وغيرها من معادن الجواهر النفيس ، ولكنها لا تلبس جميعاً في عقد واحد ، وليس في مفرداتها من صنف واحد ما ينضد في حلية معروفة بين الصاغة ، وهي مع ذلك قيمة بين الصيارف ما في قيمتها جدال .

\*\*\*

قلت في تذكاري جيتي : « من العبقرين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة ، لأنه يرتقى إلى أوجه في بعض أعماله فيأتي بخير ما عنده أو بكل ما عنده ، وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج إلى تجربة له بعدها ولا تصيب في التجربة الجديدة إلا تكررأ لا جديد فيه .  
« ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقريته في كل جزء من كتاباته ،

فبعضها لا يدل على مداها كلها، وتكرار القراءة فيها ينتهي بك كل يوم إلى جديد، فلا ننسى لك عن التجربة لسبر غورها والإحاطة بمداها، والحكم عليها في جميع أحوالها.

« وجيتي من هؤلاء العبقرين الذين لا ينبيء قليلهم عن كثيرهم، لأنه لم يجمع نفسه في قطعة واحدة ولا موضوع واحد، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة: الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته، والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع. فكل فكرة له هي أصغر من الرجل في جميع أفكاره، كما أن اليوم الواحد في غمار أيامه هو أصغر لا محالة من سنيه الثمانين ».

والذي يصدق على جيتي يصدق على باكون مع اختلاف العبقريتين في المعدن والمحصول. بل هو يصدق على باكون قبل أن يصدق على جيتي لكثرة الأجزاء التي لم تتم في كتبه الكبيرة، ولغلبة المنفردات على آثاره الأدبية والعلمية والفكاهية، كأنما هي كلها من باب الفصول والشذرات. أما ذكره الأدبية اليوم فهي قائمة على المقالات قبل غيرها كما ذكرنا في غير هذا الفصل من الكتاب، وله عدا المقالات كتابان يقرآن ويستعادان للبحث أو لمتعة المطالعة في بعض الأحيان، وهما الكتابان اللذان عارض بأحدهما أرسطو وعارض بالآخر أفلاطون، وهما القسطاس الجديد أو القانون الجديد *Novum Organum* وطوبى الجديدة *The New Atlantis*. والقسطاس الجديد — كما يدل عليه اسمه — مقياس جديد يعارض به

مقياس أرسطو في البحث عن الحقائق وتصحيح الأخطاء الفكرية ، وهو جزء من الموسوعة الضخمة التي أزمع أن يضم إليها جميع آرائه وتوجيهاته في أساليب البحث وتمحيص العلوم . ولكنه لم يتمه ، وظهر هذا الجزء منه في سنة ١٦٢٠ وبه يذكر المؤلف بين أصحاب المذاهب والدعوات ولا سيما الكتاب الأول منه وهو أنفع ما فيه .

وطوبى الجديدة New Atlantis هي رحلة خيالية إلى جزيرة سماها « بنى سالم » وحكى بها القارة الضائعة التي ذكرها أفلاطون في أحلام الفلسفة . وقد أوحاها إليه أفلاطون وكولبس على السواء ، وكان من أحلامه أو نبوءاته فيها إشارات سبقة إلى الطائرات والغواصات والتليفون ومكبرات الصوت والأغذية المركبة واختراع صنوف جديدة من المعادن والأشجار ، وقد تحققت على الوجه الذي نراه اليوم ، ولم تتحقق معها إشارات السبقة إلى الفتوح الأخلاقية والفضائل الاجتماعية التي خيل إليه أنها ماوقة في غده المنظور لتقدم العلوم والصناعات ، ويرى ولز Wells الكاتب الإنجليزي المعاصر أن طوبى هذه أعظم خدماتها كون للعلم وأصدق موحياته لمن اتبعوه في هذه الطريق . وقد نشره باكون قبل موته بسنتين .

ومن كتبه التي تراجع الآن للتنقيب في تاريخ الحركات الفكرية كتابه ترقية المعارف Advancement of learning وهو جزء من تلك الموسوعة الضخمة التي سبقت الإشارة إليها ، وقد أدمجه في كتاب باللغة اللاتينية

أسماء De augmentis Scientiarum وتناول فيه المعارف البشرية من تاريخ وشعر وأخلاق وعلوم طبيعية وسياسية مرتباً لها أماكنها ومقوماً لها قيمها، وجارياً في ذلك على مجراه من تسخير العلوم لمنفعة البشر وقياس الأخلاق بمقياس هذه المنفعة العامة، واعتبار الغرض الأسمى للسياسة أن تعنى الحكومة بالسيطرة على الطبيعة لا على الناس، تحقيقاً للغرض الأخير من جميع المعارف والمساعى والجهود، وهو زيادة المسرة والراحة ونقص الألم والعناء.

ومن كتبه العلمية التي لا تقرأ الآن إلا للتنقيب عن الآثار الماضية كتاب Sylva Sylvarum<sup>(١)</sup> الذي قصره على موضوعات أربعة: هي تاريخ الرياح، والحياة والموت، والكثافة والخفة، والصوت والسمع.

وأطرف كتبه بعد المقالات والأمثال التي ستأتى ترجمة بعضها كتاب ممتع عن حكمة القدماء نشره في سنة ١٦١٠ وحاول فيه أنه يفسر الأساطير القديمة تفسيراً يعبر عن غرض من أغراض الحكمة على سبيل الرمز والكنائية، وفي مقالاته التالية نماذج منه تدل على سائره وتعنى عن التوسع في نقله.

وقد شغل في أواخر أيامه بالتاريخ، فتوفر على إخراج كتاب عن تاريخ هنرى السابع في سنة ١٦٢٢، ونقلنا في مختاراته شذرة منه تشير إلى منحاه.

ولم يشغله كثيراً أن يذيع آثاره القانونية مع اشتغاله بالقضاء والمحاماة

(١) يصح أن يترجم هذا العنوان اللاتيني بروضة الرياض أو حقل الحقول.

كأنه كان يهملها ولا يعتمد على سمعتها بين رجال القانون . فشرت حكم القانون Maxims of law بعد موته سنة ١٦٣٠ ، ونشرت كذلك طبعة ثانية من كتابه عن تطبيق القانون بعنوان آخر هو « عناصر القانون العام »

The elements of the common law

ولا تعرف لباكون رسالة في عالم العقيدة الدينية كرسالته في العلم ولا كرسالته المحدودة في السياسة والقانون ، وإنما كان الرجل متديناً كثير التلاوة للتوراة والإنجيل كما يؤخذ من كتاباته عامة ومن مقالاته خاصة ، ولم يعن بالكتابة في الشؤون الدينية إلا لمصلحة الدولة وعلاج مشكلات الكنيسة ومشكلات الحكومة التي ترجع إليها ، ولم يزل يتهيب الخوض في الأسرار الدينية ويحيلها على أربابها من علماء الكنيسة ويؤثر الدعة واتقاء القيل والقال ، ويقارب هذه المسائل وما شابهها من مسائل السياسة ، وهو يعلم — كما قال — أن أوضع الملق هو الملق للسواد والغوغاء

\*\*\*

ونحسب أننا ننصف الرجل بلسانه ولا نستطيع أن نجمل القول في رسالته بأصدق ولا أوجز من إجماله حين قال إنه كالصورة التي تهدي إلى الطريق ولكنها لا تسلكه ، وإنه كمن ينفخ في البوق للمناضلين ولا يقتحم ميادين النضال .

## باكون الأديب

هل يعد باكون من أدباء اللغة الإنجليزية ؟ قد أجبنا عن هذا السؤال بعض الجواب في صدد الكلام عن رسالته الفكرية .

أما هو فإذا سألناه رأيه فلا شك أنه يسلك نفسه في عداد العلماء والحكماء ، بل في عداد الساسة والفقهاء ، قبل أن يخطر له الدخول باسمه وعمله في زمرة الأدباء . وأكبر الظن أنه كان يأبى أن يُحسب من أدباء اللغة الإنجليزية خاصة ، لأنه كان على سنة علماء عصره يعول في الكتابة الرفيعة على اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية ، دون « هذه اللغات الحديثة » التي تعرض العقل للافلاس كما قال !... وبلغ من سوء ظنه بمصير ما يكتب في هذه اللغات الحديثة أنه عنى بترجمة مقالاته إلى اللاتينية واعتقد أن هذه الترجمة هي التي تبقى له في سجل الأدب الخالد ما خلدت كتابة بين الناس... فنسيت الترجمة اللاتينية بعد أعوام وبقيت المقالات الإنجليزية وحدها عماداً لشهرته الأدبية بين جميع ما كتب من أسفار وفصول ومقطوعات .

ورأى باكون في كتاباته -- أو في حقها من الشهرة -- مثل من الأمثلة الكثيرة على تلك الحقيقة المتواترة التي لا شك فيها ، وهي أن الكاتب

أو الشاعر ليس بالحجة في نقد نفسه وإن كان حجة في نقد غيره . فلو كان الكتاب والشعراء لا يستحقون الشهرة إلا بما قدروه وتمنوه لكان أكثر النابيين اليوم من الخاملين المنسيين .

فعلى خلاف رأى باكون في مقالاته يُعد ولا جدال من كبار الأدباء الناثرين باللغة الإنجليزية ، ولا سيما مقالاته التي ظهرت منقحة في طبعاتها الأخيرة .

ولقد أو شك بعض النقاد أن يرفعه إلى منزلة ليس يعلوها مكان في عالم الكتابة الإنسانية ، لأنهم زعموا أنه هو صاحب روايات شكسبير أو صاحب كل ما ينسب إلى شكسبير من منظوم ومنثور . ومن كان كذلك فقد تعدى قدره مرتبة الخلاف على حسابانه من أدباء اللغة الإنجليزية ، وأصبح وحده الأديب الأول غير مدافع بين الشعراء والكتاب في جميع اللغات . أول من زعم هذا الزعم العجيب كان قساً إنجليزياً من أبناء وارويكشاير Warwickshire في أواخر القرن الثامن عشر حوالي سنة ١٧٨٥ يدعى جيمس ويلموت James Wilmot

وكانت حجته وحجة اللاحقين به في زعمه شيوع الترادف بين كتابة باكون وكتابة شكسبير في مواضع شتى من الروايات والمقالات ، وأن تربية شكسبير في صباه لا تؤهله للاحاطة بتلك المعلومات العالية التي تزخر بها منظوماته ومنثوراته ، ولا تفسر لنا كيف سافر في طلب الثقافة الفنية والعلمية إلى البلاد الإيطالية والفرنسية ، وهي عادة لم تكن معهودة

ولا ميسورة لغير العلية من أبناء السروات والنبلاء .  
وتدفع هذه الحجة حجة مثلها في القوة أو تزيد . وغواها أن باكون  
على مكانته من العلم والثقافة لم يكن ليخطيء تلك الأخطاء التاريخية التي  
ترددت في مصنفات شكسبير . ومن أمثلتها ذكر الساعة الدقاقة في عهد  
يوليوس قيصر ، واستشهاد هكتور بكلمات أرسطو وإشارة كور يولانس ،  
إلى كاتو ، وغير ذلك من الأخطاء الجغرافية والتاريخية التي لا يقع فيها  
المتعلمون بالجامعات .

على أنها حجة لها حجة أخرى تناقضها وتماثلها في القوة أو تزيد !  
فقد وقع أدباء الجامعات فعلا في أخطاء كثيرة من هذا القبيل ، وألف  
شامان العالم الأديب مترجم هومر إلى الإنجليزية مسرحية عن « متسول  
الإسكندرية الضرير » في زمن البطالسة ، فإذا هو يذكّر المسدسات والتبغ  
وأشجار البلاد الإنجليزية ، ويجرى اسم الإله أوزيريس على الألسنة  
متبوعاً بالدعاء لله والسيد المسيح !

بل قد أخطأ باكون نفسه مثل تلك الأخطاء التي أحصيت على شكسبير ،  
فقال في الطرائف والأجوبة « إن ثمستوكليس أصاب حين قال لملك الفرس  
إن الكلام كمنسوجات آراس حين تفتح وتعرض للأنظار لترى فيها النقوش  
والرسوم . أما الفكر فهو كتلك المنسوجات وهي مطوية في الصرر والكرات »  
وأي منسوجات آراس يومذاك في عهد ثمستوكليس وحروب  
الفرس واليونان !



فالأخطاء التي يقع فيها المتعلمون أو غير المتعلمين لا تذهب بنا بعيداً في فض هذا الخلاف .

وكذلك تشابه الكلمات والمترادفات لا يذهب بنا إلى أبعد من ذلك الأمد ، سواء نظرنا فيه إلى شكسبير وباكون أو إلى غيرهما من المعاصرين . لأن العصر الواحد كثيراً ما تسرى فيه المصطلحات والصيغ المتشابهة حتى تتكرر بنصها في كلام عشرة من الكتاب والشعراء ، ولعلنا نلمس ذلك لمساً فيما تنشره الصحف كل يوم وما يردده المؤلفون بين حين وحين في كل كتاب .

وكل ما تقدم لا ينتهي بنا إلى الجزم بنسبة الروايات إلى باكون أو إلى الجزم بنسبتها إلى شكسبير .

ولكننا مع ذلك نجزم كل الجزم أن الروايات لم يكتبها باكون وكتبها شكسبير دون غيره .

ودليلنا على ذلك طبيعة كل من الرجلين كما تتجلى معزولة مفصولة في تواليف هذا وذاك .

فروايات شكسبير هي روايات الرجل الذي عاش كما عاش شكسبير وأحس كما أحس شكسبير ، وليست هي روايات باكون الذي لم تضرب نفسه قط بخالجة من تلك الخواج المقيتات المقعدت في نفوس الشعراء . وقد صدق كارليل حين قال : « إن كل ما تجده في باكون من الذكاء هو من طبقة دون ذلك : طبقة مادية إذا قيست إليه » أي إلى ذكاء شكسبير .

وفي شعر شكسبير ونثره — عدا هذا الفارق — عشرات من الاشارات الشخصية إلى ماضيه وحوادث زواجه وخصوماته ومنافساته وعلاقاته ببعض الرجال وبعض النساء ، مما لا نظير له في سيرة باكون أو سيرة أحد من معاصريه ، فضلا عن لغة الفقراء والعامّة التي تشيع فيمن حوله ولا تشيع فيمن حول باكون من الخاصة المترفعين قليلى الخلقاء بين جمهرة العوام .

ومن أين مع هذا كان لباكون ذلك الوقت الذى يتسع لكتابة هذه الروايات وهو مشغول بمناصبه وبحوثه ومساعيه ومطالب عيشه ؟ ومن أين له بعد هذا كل ذلك العلم الدخيل بحرفة التمثيل وأفانين المسرح وترتيب مواقف الأبطال ؟

إن السير هنرى أرفنغ Henry Irving ثقة فى هذا الباب لأنه يحكم فيه حكم الممثل الدارس الخبير ، ومن رأيه القاطع الذى استشهد له بكثير من الشواهد « أنه لا يستطيع غير الممثل أن يكتب تلك الروايات » .  
فأيّاً كان مقطع القول فى هذه القضية فليس مما يرضاه المؤرخ الناقد أن يجعل روايات شكسبير مناط الحكم على مكانة باكون الأديب . فهو لن يدخل إلى عالم الأدب آمناً مطمئناً إلا بمقالاته وفصوله الأخرى التي تشبهها فى السياق والتعبير .

\*\*\*

وقد كانت له مزية الرائد الأول فى هذه المقالات . فإن فى المقالة

اليوم في اللغة الانجليزية فن كامل متقن مستفيض النتائج كثير الكتاب والقراء ، ومن الكتاب عندهم من يسمون بالمقالين لأنهم لا يطرقون بابا من الكتابة غير باب المقالة على نمطها الحديث الذي وصلت إليه بعد ثلاثة قرون في التعديل والتخصيص ، والفصل بين أدب المقالة وغيره من نماذج الآداب . ولكنها قبل هذه القرون الثلاثة لم تكن شيئا معروفا باللغة الانجليزية ، ولم يكن لها كون فيها قدوة مترسمة من الأدباء الانجليز ، وإنما نظر فيها إلى الحكيم الفرنسي مونتيني Montaigne الذي سبقه إلى نشر مقالاته بسبع عشرة سنة ، ثم لم يكن بينهما من الوحدة فيها غير وحدة القالب دون سواه .

فوتين فياض مسترسل كثير الاغراض متعدد الملامح الشخصية قريب في أسلوبه إلى أساليب المقالين المحدثين ، ولكن باكون — على دأبه في جميع حالاته — كان أقرب إلى الاحتجاز والتركيز ودسومة المادة الفكرية واجتناب الألوان الشخصية واللامح الخاصة التي تتم عليه وعلى الجانب الانساني فيه .

ومما يقال في شروط المقالة الحديثة أنها ينبغي أن تكتب على نمط المناجاة والأسمار وأحاديث الطريق بين الكاتب وقرائه ، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة والإفشاء بالتجارب الخاصة والأذواق الشخصية ، وهذا هو الشرط الذي لم يستطعه باكون قط في عمل من أعماله الكتابية . لأن الجانب الانساني فيه مكبوح لا ينطلق زمامه يوماً من يديه ، ولم ينس قط أنه «معلم

وقور» وأنه سائس مسؤل وأنه فقيه مطالب بالسمت والرصانة . ولم يحاول الرجل قط أن يكون غير ما كان أو أن يخالف بالموضوع ظاهر العنوان . فإنه كتب مقالاته وذكر في عنوانها أنها نصح مدنية وخلقية ، فبر بوعده الذى تضمنه هذا الوصف الوجيز . وصدق من قال فى وصف مقالاته — ولا سيما الأوائل منها — إنها أشبه الأشياء بالمدكرات التى يدونها صاحبها للمراجعة ، وأقرب الكتابة إلى أسلوب « جوامع الكلم » وأصول الحكم ورءوس العظات . وخليق بأسلوب با كون فى هذا الفن خاصة أن يجلو الفارق العظيم بين سليقته وسليقة شكسبير فى المنظوم والمنشور . فما من صفحة من صفحات شكسبير تخلو من لمحة شخصية ولون من ألوان حياته الداخلية ، وما من صفحة فى كتب با كون جميعاً تم على أثر من ذلك إلا بعد جهد جهيد فى المراجعة والاستنباط . حتى هذا الفن الذى يتفتح طواعية فى قديم الزمن وحديثه للمناجاة والتبسط بين الكتاب والقراء !

ولم يكن لنقالات با كون أسلوب واحد بل أسلوبان . لأنه نشر منها فى مبدأ الأمر عشراً ( سنة ١٥٩٧ ) ثم زادها إلى ثمان وثلاثين سنة ١٦١٢ ثم بلغت بعد التهذيب والإضافة ثمانيا وخمسين فى طبعة سنة ١٦٢٥ أى بعد ثمانى عشرة سنة من ظهورها لأول مرة .

وقد لاحظ النقاد بحق أنها كانت فى صيغتها الأخيرة أحفل بالبلاغة والزخرف وفنون التخييل والتشويق منها فى صيغتها الأولى ، واستطرد بعضهم من هذا إلى ملاحظة عجلى ليس فيها بصائب . لأنه حسب أن هذا الاختلاف

بين أسلوب الشباب وأسلوب الشيخوخة ظاهرة مستغربة لا تجرى مع المعهود من طبائع القرائح الإنسانية . فان القرائح في الناس عامة أخصب بالخيال والرونق أيام الشباب ، خلافاً لما بدا من أسلوب باكون في حالته على رأى أولئك النقاد

ولا حاجة هنا على ما نرى إلى مجاراتهم في اختراع بدعة غريبة من بدع القرائح الانسانية عامة . إذ المؤلف في الواقع أن يكون الشباب أقرب إلى تكلف الوراق لأنه مظنة الخفة ، وأن تكون الشيخوخة أقرب إلى تكلف الخفة لأنها مظنة الفتور والجود

وثمة سبب آخر نرجع إليه قبل الوثوب إلى البدع والخوارق التي لا تشاهد في جميع الأحوال

فما لا شك فيه أن باكون قد بدأ تجربته الأولى في فن المقالة وهو مترفع عنه ناظر إليه نظرة المتحفظ الذي لا يوليه جهده من العناية والاحتفال . وقد كانت له قبل كتابة المقالات فصول تفيض بالتخيل والرونق كما تفيض بها مقالاته الأخيرة بعد أن عاودها وهو معنى بها محتفل بتنميقها . فليس في قريحته من هذه الناحية ظاهرة جديدة أو غريبة تخالف المعهود والمألوف

وإنما هو أكثر ما بعدتهاون ، وإقبال بعد تردد . وما كان هذا التحول من التردد إلى الإقبال بالمستغرب بعد شيوع المقالات وتسبق الخاصة والعامة إلى مطالعتها والاستزادة منها وتلاحق ترجماتها بالفرنسية واللاتينية والإيطالية في سنوات قليلة . فقد تغير تقدير باكون لمقالاته تبعاً لتقدير القراء والنقاد ،

وبدا منه الارتياح إلى رواجها والاعجاب بها في معارض شتى ، فأشار مغتبطاً إلى تكرار طبعها وقال في خطابه إلى أسقف ونشستر : « إنه لا يجهل أن هذا الضرب من الكتابة يضيف إلى اسمه سمعة وسطوعاً فوق ما استفاده من الكتب الأخرى مع قلة العناء فيه » . وقال في رسالته إلى دوق بكنجهام : « إن المقالات أروج أعماله لأنها على ما يظهر أدنى إلى شواغل الناس وطواياهم » وقد رلها أن تبقى ما بقيت الكتب في الدنيا ، وإن كانت نسختها اللاتينية هي التي قدر لها هذا البقاء ! لأنها اللغة العالمية التي يتفق عليها خاصة القراء فقد كان الاحتفال إذن بالأسلوب على قدر العناية والتقدير ، ولم يكن على قدر الملكة البلاغية التي صحبته ولم تفارقه في الشباب ولا في الشيخوخة . فأودع فيها كل فنه بعد أن كان يوليها منه الطرف اليسير ولكنه الطرف اليسير في الأداء لا في التأمل والتفكير ، فإنه قد وفاها حقها من النضج والتحصيص سواء ما كتبه منها في الكهولة وما كتبه في الشباب

إنه لنسيج واحد في الأسلوبين ، ونصيهما من الجودة والنظافة وجمال الهندام واحد لا تباين فيه ، وإتما التباين كله في التحلية والترصيع ، وفي الوشى والتنسيق .

\*\*\*

فقالات با كون في بوا كيرها كانت طوائف من المتفرقات الفكرية تجمعها سلسلة الموضوع والعنوان في إيجاز شديد غير محتفل فيه بالتفصيل والتوضيح

كأنما يكتبها الكاتب لنفسه فهو غنى عن تفصيلها وتوضيحها لعله بمقصده منها حين الحاجة إليه ، أو كأنما هو يكتبها بلغة الاختزال الفكرى التى يفهما المرتاضون على قراءة هذا الضرب من الاختزال ، ويجهد فى شرحها غير المرتاضين عليه .

ثم جنحت فى صيغتها الأخيرة إلى التسمح بعد التزمت ، والسخاء بعد الضنائة ، والتفسير بعد الإيماء والاقتضاب ، وازدانت فى هذه الصيغة بأجل ما يزدان به النثر البليغ من براعة التشبيه وطرافة الأمثلة واختيار الشواهد من المأثورات اللاتينية واليونانية فى سياقها الملائم وموقعها المنتظر . وتم العجب فى أمر باكون خاصة بين كتاب العلية المختارين . فان الشائع فى عالم الأدب أن الجمهور يوجه الكاتب إلى وجهته ، ويرى له أحياناً غير ما يراه لنفسه إذا كان من كتاب الجماهير ، ولكنه — أى الجمهور — يعجز عن توجيه العلية بين الكتاب فى باب من الأبواب ، فينقاد لهم أو يتركهم لما يحلو لهم ويحلوا لقراءهم الممتازين ، فاذا بكاتب العلية الأول — فرانسيس باكون — يقدم لنا أندر الأمثلة على تجاوب الفهم والشعور بين القراء والكتاب كافة من كل طبقة ومن كل طراز ، ويرينا فى غير شك ولا غموض أن الجمهور لا يقف بتوجيهه عند كتابه المنقطعين له والمقصورين عليه . بل يتعداهم أحياناً إلى صفوة العلية بين الحكماء والأدباء ، فيوجههم تارة إلى الحسن المحمود وتارة إلى الشائن المغيب . . . وقد كان توجيهه لباكون فى أسلوب المقالات خاصة إلى خير مما اختاره لنفسه الحكيم الأريب .

فقد استخلص منه — بفضل الفهم والإقبال — نخبة ما أبدع واستحق به البقاء ، وعاش به بين العلية والسواد على السواء . فخرجت المقالات على صورتها المهذبة ذخراً لا يفوقه دخر أدبي في وفرة جواهر البلاغة ونصاعة خواطر التفكير ، وكثرة ما يصلح منها للاقتباس ، حتى ليوشك أن تتلاحق العبارات كلها صالحة للتمثيل والاستشهاد ، وهي على تكرار بعض الشواهد والأمثال فيها ليست مما تمل فيه الاعادة لوقوع كل تكرار في موقعه الذي لا يغنى فيه سواء .

وليقل من شاء ما شاء في شروط المقالة كما اصطاح عليها النقاد والكتاب المقلون . فهذه المقالات تؤخذ على نمطها الفريد ولا يضيرها أن تخالف به سائر الأنماط . وليس من اللازم أن تتوافي المقالات جميعاً على السنة الشائعة في عرف النقاد والقراء . ففي غير النمط الشائع مجال للخصوصيات المنفردة على حسب القرائح والطبائع والموضوعات .

وإذا كان باكون قد ابتعد بالمقالة عن نمط الحديث والفكاهة فإنه قد علا بها صعداً ولم يهبط بها إلى قرار دون ذلك القرار ، لأنه اقترب بها من ترتيل الذاكرين وتنسيق الشعراء ، فكان نثره أجدر كلام أن ينسقه شاعر مبین .

ليس باكون بشاعر على التحقيق .

أوهو ليس بالشاعر حين يكون الشعر جيشانا في الحس وقلقا في البديهة ونفاذا إلى أغوار الضمير وخيالاً يخلق في السماوات ويعوص إلى الأعماق .



ولكنه شاعر لا ريب حين يكون الشعر لمعاناً في الخاطر وجمالاً في التشبيه وانتظاماً في النسق وبقظة في البديهة . وكذلك كان في أسلوب المقالات .

وكذلك كان فيما نظم من القصيد ، وهو قليل .

ومن هذا القليل قصيدة نترجمها هنا لأن ترجمتها تفسر لنا ما عيناه بذلك القسط الشعري في كلامه المنشور . فلا فرق بين ترجمة شعره ونثره إذا زال الوزن والقافية من قصيده المترجم إلى لغة أخرى . لأن بلاغته الشعرية كلها مما يسهل تحصيله في النثر البليغ .

قال من قصيدة عنوانها « الدنيا فقاعة » حين جرب تقلب الأقدار وطوارق الأخطار :

« الدنيا فقاعة ، وحياة الانسان أقصر من مدى الشبر ! وضع في حمله  
ووضع من رحم أمه إلى مثواه ، وعليه اللعنة من مهده حيث يتربى مع  
السنين على الهموم والدموع !

فهل من يركن إلى الفناء الهزيل إلا كمن ينقش على الماء أو يخط  
على التراب ؟

\*\*\*

« لكنك تسأل : أى الحياة - ونحن مثقلون هنا بالأحزان - خير وأشهى ؟

فالقصور مدارس يلغوبها أطفال العقول .

والريف جحور لأناس من الوحوش .

وأين هي المدينة التي عرت من أدران الفساد .  
حتى لا يقال فيها إنها وايم الحق لشر الثلاث ؟

\*\*\*

« هموم البيت تقض على الزوج مضجعه ، أو توجع رأسه .  
والذين يعيشون في العزوبة يحسبونها نقمة أو يصنعون ما هو شر وأدهى .  
وأناس يتمنون الذرية ، وأناس عندهم الذرية ويضجون منها أو يسألون  
لها الزوال .

فما العزوبة إذن وما الزواج ، إلا العزلة الموحشة أو العناء المضاعف ؟

\*\*\*

« المقام في الدار داء ، والرحلة إلى الغربة خطر وعناء .  
والحروب ترعبنا بوغاياها ، والسلام نحن فيه أضل سبيلاً .  
فماذا بقي لنا بعد إلا أن نصيح وجلين :  
ليتنا لم نولد ، أو ليتنا إذ ولدنا نموت »

وليس في هذا الشعر — بعد تجريده من الوزن والقافية — معنى  
لا تحتويه مقالة أو كلام منشور

\*\*\*

ولعل باكون كان يتمنى لقرينته نصيباً شعرياً أوفى من هذا النصيب ،  
لأنه عظم الشعر كما لم يعظمه أحد من علماء زمانه وذوى الراسة بين أقرانه .  
فقال في بعض وصاياه إلى اللورد « اسكس » صديقه أولاً وغريمه بعد  
ذاك : « . . إن قصائد الشاعر تعيش ولا تضيع منها كلمة بعد أن تنطوى

الدول والحكومات بأجيال وراء أجيال... وإنها لتصعد على مرتقى من الزمن يستكشف المقبل من الزمان» .

ولا نخال باكون قد صرف هذا التعظيم إلى الشعر الذى ينسب إليه ومنه تلك القصيدة التى قدمناها . ولكنه عظم به ما كان يقدره من كلام غيره ، وما كان يتمناه لنفسه ولا يصل إليه .

وكفى بتلك القصيدة وحدها دليلا على الفارق الواضح بين الكاتب باكون والشاعر شكسبير ، أو دليلا على المكان الذى يتبوأه الكاتب باكون من ديوان الأدب الخالد ، وهو مكان الأديب الموهوب والنثر البليغ ، والشاعر اللبق فيما يحتويه النثر الجميل ولا يزيد عليه .

# من باكُون

- (١) مقالات .
- (٢) متفرقات .
- (٣) طرائف وأجوبة .

## الحق

ما الحق ؟

سؤال سأله بيبلاطس<sup>(١)</sup> مازحاً ولم ينتظر جوابه . ومن البين أن كثيراً من الطبائع القلب والعقول الواهية تحسب الثبات على العقيدة قيداً كما يحسبه أناس حجراً على المشيئة الحرة في التفكير والعمل على السواء .

وقد تولت مدرسة أولئك الفلاسفة الذين ينظرون تلك النظرة<sup>(٢)</sup> وبقى بعدهم أناس من أصحاب العقول المزعزعة يجرون على منوالهم ، وليست لهم متانة معدنهم ولا نفاذ حجتهم ، إلا أننا نرى أنه لا المشقة التي يعالجها الناس في الوصول إلى الحق ، ولا القيود التي يفرضها الحق على النفس بعد الوصول إليه ، هما العلة المغرية بالكذب والباطل ، وإنما هناك علة أخرى من هوى الطبائع تطلب الكذب جاً للكذب وتهوى الباطل غراماً بالباطل .

وفد بحث بعض المتأخرين من فلاسفة اليونان — يعنى لوسيان — في هذا الذي يولع بعض الناس بالكذب ، وليس فيه سرور فني كما في خيال الشعراء ، ولا مغنم منشود كما في مساومات التجار .

---

(١) الحاكم الروماني الذي كان في عصر السيد المسيح . وقد سأل السيد المسيح عن بعينه فقال أنها الحق ، فسأل هذا السؤال متهمكاً ولم ينتظر جوابه .  
(٢) يقصد بهم الشكوكيين أتباع بيرهون .

ولست أدري ولا إخالني أدري . فقد يلوح لى أن الحق فى وضوحه كضوء النهار البين الذى لا يروق الأنظار بعض ماتروقها أضواء الشموع فى الملاعب والمساخر ومواكب المقنعين وذوى البرقع .  
أو يصح أن يقال إن الحق كاللؤلؤ الذى يرى أحسن ما يرى بالنهار ، ولكنه ليس كالماس أو العقيق اللذين يريان أحسن ما يريان على اختلاف الأضواء .

وهل يرتاب أحد أنه لو خلت العقول الآدمية من خواطر الغرور وملق الآمال وزيف الأقدار والقيم ، وهو جس التخيل على حسب الهوى والمشية ، ونظائر ذلك من التعاليل ، لا تقبضت تلك العقول وامتلأت بالكدر والسوداء ؟

قال بعضهم : « إن الشعر خمر الشيطان » لأنه يملأ الخواطر ، وهو ظل الأكاذيب ، ولكن الأكذوبة التى تعبر بالعقل لا تضيره ، وإنما تضيره الأكذوبة التى تتغلغل فيه وتستقر فى أطوائه .

والحق بعد ليس له من ميزان يوزن به غير ميزانه ، وبه وحده نعلم أن طلب الحق — وهو خطبة جماله ، وعرفان الحق — وهو وصله وحضوره ، والايان بالحق — وهو المتعة به واحتوائه ، ذلك هو الخير الأوفى والرفعة العليا فى طبيعة بنى الإنسان .

وقد كان نور الحس أول خلألق الله فى الأيام الستة ، وكان ختامها نور العقل والرشاد ، وكان يوم السبت — يوم الراحة — نور البصيرة والروح :

ففي بداية الأمر بث سبحانه وتعالى نوره على وجه الماء أو العماء ، ثم  
بث نوره على وجه الإنسان ، ولا يزال جل جلاله يبت نوره في وجوه  
المختارين من عباده ..

وكان الشاعر<sup>(١)</sup> الذي زان أصحابه - الأبيقوريين - على تخلفهم بالقياس  
إلى غيرهم يقول : « جميل أن تقف على شاطئ البحر وتنظر إلى السفن  
غاديات رأجات عليه ، وجميل أن تقف على شرفات القلعة وتنظر إلى  
حومة الحرب وما يجري فيها ، ولكنه لا جمال يعدل جمال الوقوف على  
ساحة الحق حيث يصفو الجو ويعتدل أبدأً لينكشف لك الخطأ والضلال ،  
وما هنالك من العواشي والأعاصير تحت قدميك » .

وينبغي أن يضاف إلى ذلك أن يكون نظر الإنسان إلى ما يراه هنالك ،  
بعين الرحمة والعطف ، لابعين الزهو والكبرياء ، فإنه لك السماء على الأرض  
أن يمضي عقل الإنسان في الخير ، ويستريح في الحكمة ، ويدور أبدأً  
حول قطب من الحقيقة .

وإذا تحولنا من حقائق العقائد الدينية والآراء الفلسفية إلى حقائق  
المعيشة والعمل رأينا الاعتراف عاماً بين من يمضي على هذه السنة ومن  
يحميد عنها بأن المعاملة الصراح هي شرف الطبيعة الإنسانية ، وأن الخلط  
والتمويه إنما هما كالمعدن الذي يشاب به الذهب والفضة فتروج بهما العملة  
ولكنها تحس وتنقص ، وما كان التلوي والاعوجاج إلا كحركة الثعبان

---

(١) لوكريتيس Lucretius

الذى يزحف على بطنه ولا يتحرك على القدمين . وما من رذيلة تجلب صاحبها بالعار كافتضاحه بالكذب والخيانة ، وقد أصاب موتتين حين تساءل : ما بال الكلمة الكاذبة تعاب هذا العيب وتزرى بصاحبها هذه الزرابة فقال : « حين يقال إن رجلا يكذب ، فكأنما قيل أنه جرىء على الله جبان بين يدي خلقه ، لأنه يواجه الله بالكذب ويفر به من الناس » . وإن الشر الذى تنطوى عليه الخيانة لن يتجلى فى عبارة كتجليه فى العلم بأنها هى النذير الأخير الذى تستحق به أجيال البشر قضاء الله يوم القيامة ، فقد جاء فى التنزيل أن المسيح يعود إلى الأرض حين تفارقها الأمانة والإيمان .

## الحب

المسرح أحفل بالحب من حياة الناس ؛ لأن الحب فى المسرح مادة للمهازل ومن حين إلى حين مادة للمآسى . أما فى حياة الناس فهو عظيم الأذى يبدو تارة كالحورية وتارة كالجنية المتشيطنة .

وقد نلاحظ أنه لم يكن قط بين العطاء وذوى الخطر من النابهين ، سواء من حضر منهم ومن غير ، رجل فرد قد أصيب بلوثة الحب أو طوح به الحب إلى درجة الولع والهيام ، مما يدل على أن الأفكار الكبيرة والههم الجادة تظل بنجوة من هذه الخالجة الضعيفة .

ولكنك خليك أن تستثنى مع هذا رجلا مثل ماركوس أنطونيوس



الذى كان قسيم السلطان فى الدولة الرومانية ، ورجلا مثل أيبوس كلوديوس أحد الأقطاب العشرة المشترعين فى تلك الدولة ، وقد كان أولها شهوان لا يملك زمام نفسه ، ولكن ثانيهما كان رجلا موفور الجد والحكمة ، فكأنما الحب وشيك — ولو فى الفرط النادر — أن يجد سبيله إلى القلوب المحصنة لا إلى القلوب المباحة وحدها ، إذاهى لم تأخذ حذرهما وتحكم حراستها وما أضعف قول أيبكتيتس حين يقول : « إن فىنا بعضنا لبعض ما هو حسبنا من رواية كبيرة » كأنما هذا الانسان الذى خلق للتأمل فى السماوات ، وفى جلائل الأشياء لا عمل له إلا أن يركع على قدميه أمام صنم صغير ، ثم يستعبد نفسه لعينه لالفمه كشأن العجاوات ، وما خلقت العين إلا لما هو أرفع من هذه الأغراض .

وعجيب أمر الشطط فى هذا الهوى الذى يجمع بالطبيعة ويتجاوز الحدود ... ولا يترأى شطط من أمر كما يترأى من استغراب الناس الكلام المفخم الطنان فى كل سياق إلا فى سياق الغرام ، وليس الأمر هنا أمر الكلام وكفى ، فإن الانسان كما قيل أكثر ما يكون ملقاً لنفسه وخداعاً لعقله فى تعظيم قدره ، ولكن العاشق يذهب فى الخديعة وراء ذلك ، لأنه ما من أحد يضل فى تعظيم قدره كما يضل العاشق فى تعظيم معشوقه وتجميل صفاته . ومن ثم قيل بحق إنه لا يجتمع عقل وغرام .

ولا ينكشف هذا الضلال للآخرين وحدهم ، بل هو منكشف للمعشوق نفسه قبل غيره ما لم يكن الحب تبادلا بين العاشقين . إذ المتفق عليه

أن العشق إما أن يقابل بعشق مثله أو يقابل بازدراء مكتوم . فما أخرى  
الإنسان إذن أن يحترس من هذا الهوى الذى لا يقتصر الأمر فيه على فقدان  
ما سواه بل هو فاقد نفسه مع سائر مفقوداته .

أما ما عدا ذلك من المفقودات فالشاعر قد أشار إليها حين قال : « إن  
الذى يفضل هيلانة عليه أن يستغنى عن عطايا جونو وبالاس ، وغوى ذلك  
أن الغلو فى قيمة الحب يبخص عند المرء قيمة المال وقيمة الحكمة .

ومن المشاهد أن هذا الهوى يستوفى فيضه إبان الضعف فى حالتيه وهما  
حالة الرغد وحالة البأساء ، وإن كانت هذه الحالة أندر من الأولى .

وكلتاها تلهب الحب وتذكى أواره ، وترينا بذلك أنه وليد الحمق والغفلة  
وخير ما يصنعه المرء إذا لم يكن له بد من الحب أن يكبحه ويفصل ما بينه  
وبين شؤون جده وشواغل حياته . لأنه لم يتسرب قط إلى أعمال امرئ  
إلا أوقع الاضطراب فى حظوظه وحال بينه وبين الصمود إلى غاياته .

ولست أدرى ما بال رجال الحرب يحبون أن يحبوا إلا من قبيل حبه  
الحمر والتماس الجزاء على الخطر بالمسرات .

بيد أن الانسان مطبوع فى خفايا قلبه على طلب العلاقة بغيره . وهو ميل  
إن لم ينصرف إلى فرد أو بضعة أفراد انصرف عفواً نحو الكثيرين فألهم  
النفس خصال المودة والعطف وصنع الخيرات والحسنات كما يشاهد فى  
النسك وإخوان الدين .

إن الحب الزوجى يوجد بنى آدم ، وحب الصداقة يكملهم ويهذبهم .  
أما حب اللهو فمفسدة لهم وإسفاف .

## الحظ

مما لا نكران له أن الحوادث التي تقع في هذه الدنيا ترجع كثيراً إلى الحظ والمصادفة . كالحظوة والفرصة وموت الآخرين وتوافق الأحوال وصلاح المناسبات للملكات والكفاءات .

إلا أن المعول عليه أن الانسان يسبك قالب حظه بيديه . أو كما قال الشاعر: « في يد كل انسان أن يؤسس حظه ويقيم بناءه » .

ومن أشهر الأسباب العارضة في خلق الحظوظ أن يستفيد رجل من زلات الآخرين ، فلم يحدث قط أن أحداً علا به الحظ فجأة كما يعلوبه من جراء زلة يجترحها غيره . وقد جاء في الأمثال أن الحية لا تصبح تنيناً حتى تتبلع حية أخرى !

وهناك مناقب ظاهرة تجلب لصاحبها المدح والثناء ، ولكن الصفات التي تجلب لصاحبها الحظ أخفى من ذلك . وقد اجتمع بعضها في الكلمة الإسبانية التي يعنون بها « الكياسة » ولطف التناول والمعاملة .

وقلما وجدت حالة من حالات الإنسان إلا وهو قادر على أن ينوط فيها دولا ب فكره بدولا ب الحظ حيث دار . وقد قال ليفي بعد أن وصف كاتو الكبير: « إن الرجل العظيم خليق حيثما ولد في بيئات الحياة أن ينشئ له سمعة وذكراً » .

فلينظر من شاء نظرة العناية والانعام وهو ولا ريب قادر على أن يرى ربة الحظ في مدارها .

فهي وإن كانت عمياء ، لا تخفى على المبصرين .  
وإن طريق الحظ لأشبه الأشياء بطريق الحجر في السماء . إذ هي نجوم صفار لا تضيء الواحدة منها على أفرادها . ولكنها تضيء معاً مجتمعات . كذلك توجد في الناس صفات متفرقات قلما تبدو الواحدة منها للعيان ، أو هي جملة من العادات والملكات توفق صاحبها إلى الجد والسعادة .  
والإيطاليون يشيرون إلى بعضها حيث لا تخطر على بال . فيقولون عن يلازمه النجاح ولا تحيب رمية من رمياته إنه قد ظفر بمسحة من توفيق الجنون .

والواقع أننا لا نعرف خلتين هما أدنى إلى النجاح كأن يرزق الانسان قليلا من الجنون ولا يرزق كثيراً من الأمانة .  
ولهذا لم يكن الغيورون على أوطانهم أو ساداتهم قط محدودين محظوظين ، ولا يتأتى أن يكونوا كذلك . لأن الرجل الذي يعلق أفكاره بغيره لا يحسن أن يمضى لغايته ويسلك على جادته ومنهاجه .

وإن الحظ العجل ليخلق الرجل المغامر القلق الذي تتداوله الأظاع .  
أما الرجل القدير الركين فانما يخلقه الحظ الذي يجري على سنة الرياضة والتدريب .

والحظ حقيق بالتشريف والتقدير إن لم يكن لشيء فولديه الضمير

والصيت . والأول في نفس الانسان والثاني في نظرة الناس اليه  
على أن العقلاء كثيراً ما يتجنبون الحسد على فضائلهم بنسبتها إلى العناية  
أو إلى الحظ والتوفيق . لأنهم بهذه النسبة يقدرّون على التحلي بها واتخاذها .  
فضلا عن العظمة التي يبلغها المرء حين يكون أهلا للرعاية والاختصاص  
من مقادير السماء .

وهكذا قال قيصر للربان عند هياج العاصفة : إنك تحمل قيصر وحظه .  
واختار سلا sylla لقب السعيد دون لقب العظيم .

لا جرم كان من المشاهد المتواتر أن الذين يعزّون الفضل الكثير إلى  
عقولهم وتديراتهم يخذلهم الحظ في النهاية . وقيل إن تيموتين الأثينيين لم يفلح  
في عمل قط بعد أن قام يؤدي الحساب عن حكومته للاثنيين فطفق يقول :  
وهذا لم يكن للحظ فيه نصيب !

ولا ريب أن بعض الحظ كبعض الشعر في سهولته وسريانه ، على نحو  
ما نرى في شعر هوميير بالقياس إلى غيره من الشعراء . وإلى هذا المعنى  
أشار بلوتارك حين قابل بين حظوظ تيموليون واجيسلاس وايبامنداس .  
ومرجع هذا كله ولا مرأى إلى خاصة في طبيعة الإنسان .

## الحسد

ليس في الأحاسيس ما له من السحر والتأثير ما لهذين الاحساسين :  
الحب والحسد .

فكلاهما عنيف المطالب سريع الامتزاج بتراكيب الخيال وتوالمف  
الخطار ، يبتدر إلى العين وتم عليه النظرة ولا سيما في حضرة من هو محبوب  
أو محسود ، وكل أولئك مما يملئ له في سلطان سحره ، إن كان للسحر وجود  
وفي التنزيل نرى أن الحسد يسمى بالعين الرديئة أو النظرة السيئة ،  
ويقول المنجمون عن النحاس الذي تتسلط به الكواكب على الناس إنه  
طواع مشؤمة ، وهو ما يتضمن الاعتراف بسرمان شىء من النظر عند  
وقوع الحسد في موقعه . بل هناك من بلغت به الغرابة في هذا الصدد أن  
يعتقد أن المحسود لا يستهدف للإصابة من الأعين في حالة من حالاته كما  
يستهدف لها وهو في أوج فخاره وانتصاره . لأنه يشهد نصال الحسد في هذه  
الحالة ، ويستخرج كل ما فيه من روح باطن إلى مظاهره المكشوفة فيتلقى  
بها الضربة من قريب !

ولكننا ندع هذه الغرائب — وإن لم تكن غير أهل للاعتبار في موطن  
بجتها — وتتناول البحث في أولئك الأناسى الذين هم خلقاء أن يحسدوا  
الآخرين ، وفي أولئك الأناسى الذين هم عرضة للحسد الخاص والحسد العام  
بين جمهرة الناس .

فمن حرم المزية خليف أن يحسدها فيمن رزقها وتحلى بها . لأن عقول  
الناس تنغذى بما يصيبها من الخيرات أو بما يصيب غيرها من الشرور . ومن  
فاته أحد النصيبين ابتغى العوض منه في النصيب الآخر ، ومن يئس من بلوغ  
المزية التي يملكها غيره فسبيله أن يسعى إلى مساواته بسلبه إياها وتجريده منها

وكل طلعة مشغول بأمور الخلق فهو على الأرجح حسود بالفطرة ، لأن استطاع أحوال الخلق لا يعنيه في خاصة شؤنه وأعماله . فهو يعنيه إذن للتطلع إلى الحظوظ والأقسام . ومن كان مشغولاً بشؤنه وأعماله فقلما يتسع له مجال للحسد والضغينة ، لأن الحسد شعور فضولى حوال يتردد في الطرقات ولا يأوى إلى المنازل ، وأصاب من قال : « قلما يشغل أحد بالاستطلاع والتحرى إلا وهو منطوى الصدر على كراهية وبغضاء » .

وقد لوحظ أن المعرقين في الحسب ينظرون بعين الحسد إلى التابعين في إبان صعودهم ، لأن المسافة بينهم تتغير وتقترب ، وما زال من خداع البصر أن يحسب . أنه يتأخر كلما رأى غيره يتقدم إليه .

والمشوهون والخصيان والشيوخ والأنفال حاسدون ، لأن اليأس من إصلاح حاله يبذل ما في وسعه لإفساد حال سواه . إلا أن تحقيق تلك العيوب بنفوس طبعت على البطولة والرفعة ، فتجعل تلك العيوب سبباً من أسباب فخارها والثناء عليها . كما اتفق لبعض الخصيان والعرج أن تسمو بهم الهمم إلى خوارق الأعمال . ومنهم الخصى نارسس والأعرجان اجيسلاس وتيمور<sup>(١)</sup> .

ويشاهد الحسد في أولئك الرجال الذين يرتفعون بعد النكبات والمصائب لأنهم يسيئون الظن بالدنيا ويرون أضرار الناس عوضاً لهم عما تجشموه .

---

(١) Narses قائد مشهور في عهد الإمبراطور جوستينيان ، واجيسلاس ملك سبرطة وتيمورلك الفآخ الترى المعروف

والحسد من لوازم أولئك الذين يطمحون إلى التفوق في كثير من الأمور ، طيشاً منهم أو ولعاً بالفخار الكاذب . لأنهم لا يعدمون سبباً للحسد كلما تفوق عليهم أحد في مطلب من المطالب الكثيرة التي يطمحون إليها ، وكذلك كان الإمبراطور أدریان في جلالة سلطانه يحسد الشعراء والمصورين والحذاق في الصناعات التي كان يشتهي أن يتفوق فيها .

كذلك يشاهد الحسد بين الأقارب والزملاء والناشئين معاً في بيئة واحدة ، فهم يحسدون أمثالهم كلما جاوزوهم وارتفعوا عليهم . إذا كان هذا الارتفاع غاضاً من حظوظهم موجهاً الأبصار إلى قصورهم وتخلفهم كثير الورود على خواطرهم والتنبيه لخواطر غيرهم . وما زال الحسد ينمو بالقتيل والقتال والشهرة التي تشغل البال ، وقد كان حسد قابيل لأخيه أخس وألأم حين قبلت ضحيته ولم يكن هنالك من ينظر إليه .

ذلك جملة ما يقال فيمن يحسدون .

أما الذين هم مستهدفون للحسد على كثرة أوقلة ، فأولهم أصحاب المزايا الخطيرة . . . وهم كلما ثبتوا في مزاياهم قل حسد الحاسدين إياهم . لأن مزاياهم تلوح يومئذ كأنها حق من حقوقهم وصفة لاصقة بتكوينهم . وقل في الناس من يحسد صاحب الدين إذا ظفر بدينه ، وإنما يوكل الحسد بالغنائم والمكافآت كذلك يوكل الحسد بالمقارنة . فلا حسد حيث لا مقارنة ، ولهذا لا يحسد الملوك إلا الملوك .

وعلى هذا يلاحظ أن الذين لا خلاق لهم إنما يحسدون في أوائل ظهورهم



ثم يضعف الحسد لهم بعد ذلك . وهو خلاف ما يلاحظ في أمر الأكفاء وذوى الجدارة ، فانهم كلما دامت لهم حظوظهم تقام حسد الحاسدين إياهم ، إذ سهل إنكار فضلهم مع بقاءه كما كان بعد بزوغ الحظوظ الأخرى التى تغض من حقوقهم .

والمعروفون فى النسب أقل نصيباً من حسد الحاسدين عند علوهم ، كأنهم فما يبدو للناس ينالون حق ميلادهم ولا يبدو للناس مع ذلك أنهم قد أضيف إليهم شئ كثير فوق ما كان لديهم .

والحسد كنور الشمس أحر ما يكون فى السفوح الصاعدة وأقل ما يكون حرارة فى البطاح المبسوطة . ولهذا يقل حسد الناس لمن يبلغ حظه درجة بعد درجة ، ويشتد حسدهم لمن يثب إلى الحظ فى سرعة مفاجئة .

والذين يقرون نجاحهم بالرحلات البعيدة والمغامرات الخطرة والمهموم اللامعة هم أقل من غيرهم نصيباً من حسد الحاسدين . لأن الناس يعلمون أنهم قد جهدوا جهدهم قبل نجاحهم ، وقد يشفقون عليهم ويرثون لهم ، وما زالت الشفقة دواء شافياً للحسد والغيرة . ومن ثم ترى الدهاء من الساسة على قدر حظهم من الدهاء يبالغون فى ذكر متاعهم والشكاية من أوصابهم ، لأنهم يشعرون بذلك حقاً فى طوايا قلوبهم ، ولكن ليفلوا غرب الحسد ويكبحوا طغيان النعمة والضعينة .

إنما ينبغى أن نذكر هنا أن المشاق التى تقل غرب الحسد هى المشاق التى تفرض على أصحابها فرضاً وليست هى تلك التى ينتزعونها من غيرهم

انتزاعاً . فما من شيء يضرم الحسد كتضخيم الأعمال وتوسيع المطامع ، وما من شيء يطفىء سورتها كاستبقاء دوى المناصب العالية جميع رؤسهم في مواضعهم وتزويدهم بجميع حقوقهم ، فيقومون إذن حواجز كثيرة تحول بينهم وبين أعين الحاسدين .

وبعد فإن أكثر الناس تعرضاً للحسد كله أولئك الذين يحملون حظوظهم الكبيرة في صلف وعجرفة ، ولا يهدأ لهم بال حتى يعرضوا للأنظار مبلغهم من العظمة إما بالفخفة الطنانة أو بقمع ما يعترضهم من المناوأة والمنافسة . على حين يتعمد العقلاء أن يقدموا القرابين للحسد بقبول التحطى والإهمال أحياناً فيما ليس له عندهم كبير طائل .

ومع هذا يحسن أن نذكر أن التجمل بسمت العظمة في غير صلف ولا عجرفة يعنى صاحبه من الحسد الذى يصيب التحيلين والمراوغين فى إظهار عظمتهم . لأن المراوغة معناها هرب الانسان من الاعتراف بحقه فى العظمة ، وتسليمه باغتصاب ما هو فى حوزته من الحظوظ ، فيوحى إلى الآخرين بالقدوة له أن يحسدوه .

ونختم هذا الجزء من المقال بما أشرنا إليه فى مستهلها حيث قلنا إن الحسد ينطوى فيه على شيء من السحر فعلاجه وعلاج السحر سواء .

أما هذا العلاج فهو نقل الآفة من موضوع إلى موضوع أو من هدف إلى هدف ( كما يصنع السحرة حين يتخذون تعويذة ينقلون إليها فعل المكيدة السحرية ) .

وكذلك كان عقلاء النابيين حريصين أبداً على أن يبرزوا على المسرح بعض الشخوص لتتلقى عنهم إصابة الحساد . من قبيل الأعوان والخدام تارة ومن قبيل الزملاء والعشراء تارة أخرى . ولا يعدمون يوماً طائفة من أصحاب الطبائع الهجامة يقبلون هذا لقاء ما هم طامحون إليه من السطوة والنفوذ ونعود إلى الحسد العام أو الحسد بين جمهرة الأمة، فنقول إنه لا يخلو من النفع إذا كان الحسد الخاص قد خلا منه بته . إذ كان حسد الأمم ضرباً من الفتوى التي تصدرها الشعوب لعقوبة العطاء ، فهو كالجرح من الغلواء ومذكر لهم بالتزام الحدود ، ويصيب الرجال كما تجاوزوا في العظمة أقصى الحدود .

وأصل كلمة الحسد في اللغة اللاتينية مشتق من النظر أو الإصابة بالعين ، وهو في معنى الحسد العام يقابل عندنا معنى التذمر والسخط وانقلاب الرأي العام الذي سنتناوله بالبحث عند الكلام في الفتنة والهياج .

وإنه لكالمرض المعدى حين يظهر في الأمة ، لأن العدوى هي إصابة السليم من السقيم ، وهكذا الحسد العام أو التذمر حين يصيب جمهرة الأمة من شأنه أن يسرى إلى أحسن الأعمال فيلوئها بسوء القالة ، وقبلما يجدى هنالك أن تتمزج الأعمال الذميمة بالأعمال الحميدة ، لأنها تلوح للناس كأنها محاولة للوقاية والنجاة ، وكثيراً ما يكون الجهد في اتقاء العدوى من أسباب الإصابة .

ويبدو أن الحسد العام موكل بكبار الرؤساء وأصحاب المناصب دون

الملوك والدول أنفسها . ولكنها قاعدة لا ريب فيها أنه حين يشتد الخنق على وزير من الوزراء وهو قليل التبعة فيه ، أو حين يعم الخنق جميع الوزراء ولا يخلص أحداً منهم فهو في الواقع موجه إلى الدولة في صميمها وإن لم تصرح به الظواهر لأول وهلة .

وحسبنا هذا في موضوع الحسد العام والفرق بينه وبين الحسد الخاص ، وإنما نضيف إلى ما تقدم كله أن الإحساس بالحسد هو أشد الأحاسيس إلحاحاً وأقواها على المثابرة . لأن الأحاسيس الأخرى تعترى صاحبها نوبة بعد نوبة . أما الحسد فهو كما قيل في المثل « يعمل بغير إجازة أو بغير عطة » ومن ثم يذبل الحاسد والعاشق ويلح عليهما الضنى والهزال ، على خلاف المعهود في غيرهما من الأحاسيس ، لأنها لا تدوم هذا الدوام ولا تلح هذا الإلحاح .

وإن الحسد فوق هذا لمن أخس الأحاسيس وأرذلها ، فلا جرم يعزى إلى الشيطان الذي يدعى بالرجل الشرير « يدس الزوان بين القمح في جنح الظلام » وهكذا كان الحاسد أبداً من العاملين في الخفاء لإفساد الطيبات ، والقمح مثل هذه الطيبات .

## الحمد والثناء

الحمد هو ظل الفضيلة أو انعكاس شعاعها ، ولكنه يشبه الزجاجة أو الجسم الذي يعكس الشعاع .

فان كان من سواد العامة فهو في الأغلب الأعم كاذب فارغ ، وأكثر ما يكون من قسمة أصحاب الغرور دون أصحاب الفضيلة .  
لأن الذي يستجلب الحمد منهم إنما هو أحط أنواع المزايا ، فأما المزايا الوسطى فهي تدهشهم وتشير عجبهم أو إعجابهم ، وأما ما فوق ذلك من المزايا فلا قدرة لهم على إدراكها بته ولا يعرفون منها إلا صورتها ومرآها .  
ويصدق عليهم هنا قول القائل إنهم يؤخذون بما يلوح لهم أنه فضيلة لا بما هو فضيلة في الجوهر .

والحق أن الصيت كالنهر الذي يحمل ما خف وانتفخ ويفرق ما صلب ورجح وزنه . ولكنه إذا اتفق عليه أولو الرأي والجدارة كان كما جاء في التزييل : « خيراً من الدهن الطيب » يملأ جميع ما حوله ولا يزول سريعاً ، لأن نفحة الطيب أبقى من عبير الأزهار .

وثمة ضروب شتى من الحمد والثناء حتى ليحق للانسان أن يتلقاها بالحدز والريبة ، فمنها ما يأتي من الملق وهو مختلف على حسب أصحابه . فان جاء من بعض العامة فهو لا يعدو إسناد الفضائل الشائعة التي تصلح لكل ممدوح ، وإن جاء من ذى حيلة وفطنة فهو يحذو فيه حذو المتملق الأعظم وهو الممدوح نفسه . فحيث يتعاضم رأى الممدوح في نفسه وظيفه في مزاياه فمن ثم يأخذه المتملق وتشتد قبضته عليه . إلا أن يكون متملقاً وقاحاً فيعمد إلى مواطن الضعف التي يحسها الممدوح من نفسه فيغلو في الثناء عليها فيبدوله كأنه يسخر منه وينبه إلى نقائصه وعيوبه .

ويصدر بعض الثناء من نية حسنة ومقصد شريف ، كالثناء على الملوك والعظماء ، وربما كان القصد به التعليم والإرشاد من طريق الإطراء والمدح ويصدر بعض الثناء للايذاء والمضرة من طريق إثارة الحسد والضغينة ، وفي هذا يصدق تاسيتس حيث يقول : إن أخس الأعداء هو العدو الذي يثنى ويمدح .

وقد كان من أمثال اليونان أن الرجل الذي يمدحه المادحون لضرره خليق أن تنبت له بثرة على أنفه ، وهو شبيه بما نقوله نحن عن الكاذب الذي تنبت له بثرة على لسانه !

بيد أن المدح المعتدل في مناسباته ومعارضه يفيد وينفع . وسليمان الحكيم يقول إن من يرفع عقيرته بالثناء على قريبه في بكرة الصباح « يحسب له لعناً » . لأن الإغراق في التعظيم يغري بالمنافضة ويثير الحسد والسخرية . وثناء المرء على نفسه غير لائق به إلا في أندر أحواله . ولكنه يستطيع أن يثنى على وظيفته أو على صناعته بشيء من اللياقة وحسن النية .

وقد تعود كرادلة روما ، وهم الفقهاء والعلماء ، أن يطلقوا كلمة « المستخدم » على جميع العاملين في الوظائف المدنية من رجال الحرب والسفارات والشرائع على سبيل الزرارية والاستخفاف . ولكن هؤلاء « المستخدمين » كثيراً ما يعملون في نطاق وظائفهم ما هو أجل وأنفع من تلك السبحات العاليه ! وكان القديس بولس يقول حينما افتخر بنفسه : « إننى أتكلم كالمحمى » ولكنه كان إذا أشار إلى رسالته قال : « بما أنى رسول للأمم أجد خدمتى » .

## الشباب والشيخوخة

قد يكون الرجل الصغير في سنه كبيراً في ساعاته إن لم يفرط في شيء من وقته ، ولا يتفق ذلك إلا في الندرة .

والغالب أن الشباب كالفكرة الأولى التي ليس فيها من الحكمة ما في الفكرة الثانية . لأن الشباب يكون في الأفكار كما يكون في الأعمار إلا أن مبتكرات الشباب أنضر من مبتكرات الشيخوخة ، والأخية إلى أذهانهم أسرع وأقرب إلى النفحات العلوية .

والطبائع التي تغلب عليها الحدة وتستولى عليها الشهوات العنيفة لا تنضج للعمل حتى تجاوز منتصف حياتها كما كان يوليوس قيصر وسبتيموس سرفوس الذي فيل فيه إنه قضى عمراً مفعماً بالأخطاء بل بالجنون ، وكان مع هذا أقدر العواهل جميعاً أو يكاد .

ولكن الطبائع الهادئة قد تحسن العمل في الشباب كما كان أغسطس والدوق قسмос أمير فلورنسه وجاستون دى فوا وآخرون .

على أن الحدة والنشاط في الشيخوخة من أصلح الخصال للنهوض بالأعمال . والشبان أصلح للابداع منهم للحكم والتقدير ، ولتنفيذ منهم للمشورة ، وللخطط الجديدة منهم للسنن المقررة .

والشيخ يسدون خطاهم فيما يتناولونه من أعمالهم ، ولكنهم يسيئون توجيههم فيما هو جديد مبتكر .

على أن غلطة الشباب وبال على العمل ، ولكن غلطة الشيخوخة لا يبلغ منها إلا أنها تتطلب المزيد من القدرة أو المزيد من السرعة .  
ومن دأب الشبان في سياسة الأمور أنهم يحيطون بأكثر مما يقدرّون على حمله ، ويحركون أكثر مما يقدرّون على تسكينه ، ويندفعون إلى الغاية دون مبالاة منهم بالوسائل والدرجات ، ويعتمدون على قليل من المبادئ التي اتفقت لهم بغير روية ، ويعتسفون المسائل التي تقحمهم في العواقب المجهولة ، ويبدأون بالعلاج الحاسم من الوهلة الأولى ، ويضعف أغلاطهم أنهم لا يعترفون بها ولا يرجعون فيها ، كالجواد الجامح الذي لا يقف ولا يلتفت يمنة ويسرة .

أما الشيخ فيعترضون كثيراً ويتشاورون طويلاً ويقتحمون قليلاً ، ويسرعون إلى الندم والنكوص ، وقلماً يدفعون الأمور إلى أقصى غاياتها ، بل يقنعون من النجاح بالخطة الوسطى .

ومن الحسن والواجب أن يتلاقى النهجان ، لأن تلاقيهما خير للحاضر إذ تتكفل فضائل كل سن بتصحيح نقائص الأخرى ، وخير للمستقبل إذ يصبح الشبان متعلمين حين يكون الشيخ عاملين ، وخير لآثار الأعمال فيما يراه الناس . لأن الثقة والحجة تقفوان أثر الشيخ والحظوة والشهرة تقفوان أثر الشبان .

ولعل الشبان أحق بالرجحان في مسائل الأخلاق حيث يكون الشيخ أحق بالرجحان في مسائل السياسة . وقد جاء في أقوال بعض الربانيين



« إن شبانكم سينصرون الرؤى وشيوخكم سيحملون الأحلام » مما يفيد ان الشبان أقرب إلى جوار الله من الشيوخ ، لأن الرؤى فى باب الوحي أوضح وأصدق من الأحلام .

والواقع أنه كلما سرب الرجل من هذه الدنيا أسكرته ، وإنما يستفيد الشيوخ على الأرجح من جانب مدارك الفهم فوق ما يستفيدون من جانب حسن المشيئة والشعور .

ومن الناس من يعجل إليهم النضج ويعجل بهم الذواء والذبول ، وهم أصحاب العقول القصمة كأنها الحد المشحوذ الذى يتنلم من بضع ضربات . كذلك كان هرموجينس<sup>(١)</sup> الخطابى الذى جاءت قريحته بمصنفات بلغت الغاية من الدقة ولطف المدخل ثم تثلمت قريحته وغلب عليها التبلد والكلال .

وهناك طراز آخر من ذوى الملكات تجمل ملكاتهم فى الشباب ولا تجمل فى الشيخوخة ، ومنها ملكة الكلام الذلق المزخرف وهو مقبول من الشباب غير مقبول من الشيوخ .

وقد قال شيشرون عن مزاحمه هورتنسيوس « لم يتغير وقد كان فى التغير له صلاح » .

والطراز الثالث من أصحاب الماكات بعد هؤلاء وهؤلاء يشب الوثبة

(١) أديب يونانى من طرسوس فى القرن الثانى الميلاد

العالية في البداية ثم يعجز عن ملاحقتها بما هو أهل لها في الشيخوخة ،  
وكذلك قال ليفي المؤرخ عن سيبيو Scipio الأفريقي « إن بدايته كانت  
أعظم من منتهاه » .

## الدراسة

الدراسة تراد للسرور أو للزينة أو للقدرة .  
وهي للسرور في العزلة والانفراد ، وللزينة في الحديث ومطارحة الآراء ،  
وللقدرة في تصريف الأعمال وتدير الأمور .  
وقد يستطيع ذوو الخبرة الذين عرفوا أعمالهم بالمرانة أن ينجزوا العمل ،  
بل أن يتأملوه في تفصيلاته ، منفردين كل منهم على حدة .  
أما المشاورات العامة والخلط المرسومة ومراجعة المسائل وعرض الشئون  
فإنما تكون على أتمها وأحسنها إذا تولاها ذوو العلم والدراسة .  
والإسراف في وقت الدراسة كسل ، والإسراف في التزين بها تكلف  
وادعاء : والتعويل عليها وحدها في تقدير الأشياء هو شئنة معهودة  
في الحفاظ والعلماء .  
فالدراسة في الواقع تصقل الطبيعة والخبرة تصقل الدراسة ، وما الملكات  
المطبوعة إلا ككل ما تنبت الطبيعة محتاجة إلى التشذيب من يد  
الصناعة والمعرفة .

والدراسة تكييل لنا المعارف كيلا جزافا فهي من جانبها محتاجة إلى ضابط  
من الخبرة والتجربة .

\*\*\*

إن الأذكياء يستخفون بالدراسة ، والسذج يعجبون بها ، والعقلاء  
يستخدمونها ، لأنها لا تؤدي إلى وسائل استخدامها بغير عقل مستقل عنها  
مستفاد من الملاحظة والاستنباط .

ولا تقرأ لتعارض وتجادل، ولا لتسلم وتستسلم ، ولا لتطرق باباً من أبواب  
الأحاديث والأقويل ، ولكن لتزن وتفكر وتعيد النظر فيما قرأت .  
ومن الكتب ما يذاق ، ومنها ما يردد ، ومنها — وهو أقلها ، ما يمضغ  
ويهضم .

وغوى ذلك بعبارة أخرى أن بعض الكتب يتصفحها القارئ جزءاً  
من هنا وجزءاً من هناك ، وبعضها يتصفحها القارئ بغير اشتياق أو عناية ،  
وبعضها يستوعبه القارئ جميعاً بما في وسعه من جلد ومثابة وانتباه .

كذلك من الكتب ما تنيب عنك غيرك في الإلمام بمضامينه واقتباس  
شواهد ومختاراته ، وهي من الكتب المرجوحة في القيمة بالمرتبة الفكرية .  
وما زال من دأب الكتب المستقطرة أن تشبه السوائل المستقطرة التي لا طعم  
لها ولا نكهة .

إن المطالعة تنشىء الرجل المتمم ، والمشاورة تنشىء الرجل المستعد ،  
والكتابة تنشىء الرجل المحكم ، ولهذا يحتاج الرجل إلى ذاكرة كبيرة إذا

كان قليل الكتابة ، وإلى بديهية حاضرة إذا كان قليل المشاورة ، وإلى حيلة كبيرة إذا كان قليل القراءة ، فيتسنى له أن يبدى من العلم والمعرفة ما ليس لديه .

\*\*\*

والقراء يقتبسون الحكمة من التواريخ ، والفطنة من الأشعار ، والدقه من الرياضيات ، والعمق والرصانة والخلق والمنطق وقوة العارضة من الفلاسفة الطبيعية والعلوم التجريبية .

وما من عقبة في التفكير إلا وفي وسعك أن ترفعها وتذللها بمعالجة الدراسة شأن الفكر في ذلك شأن الجسد ، إذ يعالج النقص فيه بالرياضة والتمرين . فتعالج العروق والمفاصل بكرة المضارب ، وتعالج الرئة والصدر بالرباية ، وتعالج المعدة بالسير الرفيق ، ويعالج الرأس بالركوب ، إلى أشباه ذلك من ضروب العلاج بالرياضة والتمرين .

وعلى هذا النسق يعالج شرود الذهن بالرياضيات ، لأن المشتغل بالرياضة يضطر إلى البدء من أول المسألة إذا شرد ذهنه ولو لمحة قصيرة .

كما يعالج العجز عن التفرقة بين الأشياء بمتابعة الفطاحل المتبحرين من علماء الكلام لأنهم يشقون نقيير الحبة شقين !

وكذلك يعالج ضعف الاستدلال واستحضار الأمثلة والشواهد بدراسة قضايا المحامين ، وقس على ذلك كل قصور في الذهن فهو ميسور العلاج بالرياضة ذهنية من هذا القبيل .

## الإلحاد

لأهون علىَّ أن أصدق جميع الأعاجيب التي في كتب الأولين وفي التلمود والقرآن من أن أصدق أن هذه البنية الكونية خلو من العقل .

وأرى أن الله لم يخلق قط معجزة لاقناع الملحدين ، لأن خلقته العامة حرية أن تقنعهم إن كان بهم مقنع .

والحق أن قليلا من الفلسفة يمنح بالإنسان إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في الفلسفة يرد العقول إلى حظيرة الإيمان .

وإذا وكل العقل بالأسباب الثانوية وهي مبعثرة لا تناسق بينها وقف هنالك أحيانا ولم يتجاوزها إلى ما وراءها .

ولكنه متى لمح التسلسل بين حلقاتها والاتصال بين أجزائها لم يكن له بد من اللياذ بالقدرة الخالقة والحكمة الالهية .

لا بل يأتي الدليل على صدق الإيمان من أكثر المدارس الفلسفية عرضة للاتهام بالإلحاد ، ونعني بها مدرسة ليوسبس<sup>(١)</sup> وديمقريطس وابيقور . ولأن يقال إن العناصر الأربعة المتغيرة والعنصر الخامس الذي لا يتغير<sup>(٢)</sup> تستغنى عن الله بما فيها من قدرة التآلف والتركيب — ذلك أدنى إلى القبول من

---

(١) هذه هي المدرسة الذرية التي تقول بنشوء الكون من توحيد العناصر للذرات المادية ، وقد راجت تعاليمها في القرن الخامس قبل الميلاد

(٢) يريدون الأثير

أن يقال إن هذا الجيش الذى لا يحصى من الذرات الصغيرة ينتظم على هذا الوضع الجميل بغير قيادة إلهية .

والتنزيل يقول : « إن الأحق قال فى نفسه أن لا إله » ولم يقل إنه فكر فى نفسه ..

فإنه ليهجس بها على هواه ولكنه لا يستطيع أن يؤمن بها حقاً وصدقاً أو يبلغ بها من عقله مبلغ الإقناع . وما من أحد ينكر وجود الله إلا أولئك الذين يوافقهم أن يكون الله غير موجود .

ولا يظهر من شىء من الأشياء أن الإلحاد على الشفاه وليس فى صميم القلوب كما يظهر ذلك من لفظ الملحدىن حين يتحدثون برأيهم كأنهم ضعفوا عن احتمالها فى قرارة أنفسهم فهم يبغون القوة عليه من موافقة الآخرين .

وأكثر من ذلك أن ترى الملحدىن يسعون فى جمع المريدين حولهم كما ينبغى للطوائف المؤمنة ، وأكثر من هذا وذاك أنهم يحتملون التضحية فى سبيل الإلحاد ولا ينكصون عنه . فما بالهم يشقون أنفسهم إن كانوا يحسبون حقاً أن لا إله ؟

ويعزى إلى أبيقور أنه كان يتوخى المصانعة بما لا يعيبه حين قرر ما قرر عن الطبائع المباركة التى تستوفى متعتها دون النفات إلى حكومة العالم العليا . ويزعمون أنه كان يداور ويرaug وهو فى سريره لا يؤمن بوجود الله . ولكنه على التحقيق مظلوم فيما اتهم به لأن كلماته نبيلة قدسية إذ يقول :

« ليس من الرجس أن تنكر أرباب العامة ، وإنما الرجس أن تعزوا أقوال العامة إلى الأرباب » .

فلو كان أفلاطون قائل هذه الكلمات لما زاد . وإنه وإن بلغت به الثقة أنه ينكر التدبير لم تبلغ به القوة أن ينكر الطبيعة .

وقد اتخذ أقوام كهنود أمريكا الأسماء لأربابهم الخاصة وإن لم يتخذوا اسماً واحداً لله « . فهم على دين الوثنيين الأقدمين حيث كانوا يدعون من أربابهم جو بتر وابلو ومارس ولا يدعون اسم الله الأعظم . ويؤخذ من ذلك أنه حتى القبائل البربرية تدرك الفكرة وإن لم تصل إلى متسع آفاقها . فكأنما اجتمع على ادحاض الملحدين أعرق الناس في الهمجية وأقدر الفلاسفة على الفهم والنفاز إلى الحقيقة .

وإن الملحدين المفكرين لقليلون . تلقى منهم دياجوراس وبيون ولوسيان وواحداً هنا أو هناك ، ولكنهم مبالغ في أمرهم . . . إذ كان الناس يحسبون كل من ينكر رباً خاصاً أو عقيدة خاصة من الملحدين .

أما كبار الملحدين فنناققون لا يزالون يمسون القدسيات بغير شعور حتى ينتهى بهم الأمر إلى فساد الضمير .

ومن دواعى الإلحاد كثرة الشيع فى الأديان . فإن شيعه من الشيع الكبيرة

(١) دياجوراس من فلاسفة ميلوس فى القرن الخامس قبل الميلاد وقد نفى من أثينا لإلحاده ، وبيون كان يسمى بيون الكافر وعاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولوسيان مات سنة ١٩٠ للميلاد واشتهر بالتجديف .

عسية أن تلهب حماسة العقيدة في قلوب الشيعة الأخرى . أما الشيع الكثرية فمجلبة للشك والإلحاد .

ومن دواعيه فضائح رجال الدين حين يبلغ من سوء حالهم أن يقال فيهم كما قال القديس برنارد « كانوا في القدم يقولون كيفما يكون الشعب يكون قسيسوهم . أما اليوم فليس هذا مما يقال لأن الشعب خير من القسيسين » . وداع ثالث للإلحاد تعود بعض الناس ألا يتورعوا عن التهزئة بالشغائر المقدسة فلا يزال ذلك دأباً لهم حتى يعصف في نفوسهم بهيبة الدين .

وإذا شاع التعلم — ولا سيما في أيام الرغد والرشاء — فذلك داع آخر من دواعي الإلحاد . لأن أيام العسر والمحنة تلوذ بعقول الناس الى حظيرة الدين ولتعلم أن الذين ينكرون الله يهدمون كرامة الإنسان . إذ كان الإنسان بجسده قريباً من الحيوان ، فإن لم يكن بروحه قريباً من الله فهو مخلوق لئيم خسيس .

كذلك يهدم من ينكرون الله مروءة الإنسان وما في طبعه من سمو وشرف ، ولنراقب ذلك في مثال الكلب وما يتمثل فيه من الكرم والشجاعة حين تشمله رعاية مولاه ، وهو عنده بديل من الإله ، أو طبيعة عليا بالقياس اليه . وما كانت لتخامر مخلوقاً مثله تلك الشجاعة لولا اعتماده على طبيعة خير من طبيعته تكلاًه وترعاه .

والإنسان على هذا المنوال يستجمع القوة واليقين الذي لا قبل للطبيعة الآدمية به حين يركن إلى العناية الإلهية والرعاية السماوية .



فالإلحاد وهو خلة بغيضة من شتى الوجوه يزداد بغضاً بهذه الجناية التي تحرم الطبيعة الأدمية وسائل الترفع عن ضعفها والسمو على ضعفها .  
وشأن الأفراد في ذلك شأن الأمم والأقوام . وما تناهت النخوة بآل رومة إلا من ذلك كما قال شيشرون وهو يخاطب أبناء قومه : « سادتي .  
إننا نكبر أنفسنا ما نشاء ، ولكننا على أية حال لانفوق الإسبان في الكثرة ولا الغاليين في القوة ، ولا القرطجنيين في الحيلة ، ولا الاغريق في الفن ، بل لانفوق الإيطاليين واللاتين في الغرام الفطري بهذا الوطن وهذه الأمة ولكننا في التقوى أو الحاسة الدينية ، أو في تلك الحكمة الخاصة التي ترجع بتدبير جميع الأشياء وهدايتها إلى العناية الالهية — نحسبنا قد تفوقنا ولا ريب على جميع الأمم وجميع الأقوام »

## الظن

الظنون بين الأفكار كالحفافيش بين الطيور ، لا تطير إلا في غسق المساء .  
ومن الحق أن تكبح أو تراقب على حذر ، لأنها تعيم على العقل وتضيع الأصدقاء وتعطل العمل فلا يجرى في مجراه على استقامة وسهولة .  
وهي تغرى الملوك بالطغيان والأزواج بالغيرة والحكماء بالتردد والوجوم ، وهي عيوب في الرأس لا في القلوب ، لأنها تتسلل إلى أقوى الطبائع كما رأينا في مثال هنرى السابع ملك هذه البلاد . فلم يكن قط رجل أقوى منه ولا أميل منه مع الظنون ، وذاك الذي يعصم بعض العصمة فلا ينجم من

الظن إلا اليسير من الأضرار ، لأنه لا يؤخذ على علاته ولا يقبل إلا بعد امتحان وترجيح .

ولكنه سريع التمكن في الطبائع التي يملكها الخوف ، ولا شيء يدعو إلى الإفراط في الظن من الاقلال في العلم اليقيني ، فمن التمس دواء للظن فليتمسه في زيادة العلم واستقصائه ، ولا يقنع بكظمه والسكوت عليه وماذا ينبغي الناس يا ترى ؟ أيحسبون أولئك الذين يستخدمونهم أو يعاملونهم قديسين وملائكة ؟ أيخفي عليهم أنهم ينشدون مآربهم ولباناتهم ويخلصون لأنفسهم فوق إخلاصهم لغيرهم ؟

فخير ما نكفكف به من جماح الظنون ونردها به إلى الاعتدال أن ننظر إليها كأنها صادقة لا غرابة فيها وأن نصددها كأنها كاذبة لا دليل عليها . ومن حسب الظنون صدقا كان ذلك أحرى أن يمنع ضررها ويسبقه بالحيلة والوقاية .

\*\*\*

إن الظنون التي يلفقها الذهن طنين . أما الظنون المصطنعة التي تنفثها في الرؤس همسات النمامين وأراجيف الوشاة فهي حمة لاسعة . وخير ما يصنع في هذه الحالة أن يعمد الظان إلى الصراحة فيواجه النمام بمن ينم عليه ويعرف إذن من حقيقة الأمر ما غاب عنه ، ويصدم النمام فلا يعود إلى الوشاية والاختلاق .

إلا أنها خطة لا تحمد مع السفلة والوضعاء ، لأنهم إذا انكشفوا بالتهمة

لم يخلصوا قط بعد ذلك . والايطاليون يقولون في أمثالهم : « إن الاتهام يحل من عهد الولاء » . . . . كما أنما الظن يبطل دواعي الاخلاص وهو في الواقع قمين أن يمهد لها سبيل التبرئة والانتصاف .

### الخرافة

لأن يتجرد الانسان من كل فكرة عن الله خير من أن تكون له فكرة سيئة فيه . لأن الأولى نقص في العقيدة أما الأخرى فهي ذم ومعاية . فالخرافة عيب في حق الذات الإلهية .

وقد أحسن بلوتارك حين قال « أحب إلي كثيرا أن يقول الناس لم يوجد قط إنسان يدعى بلوتارك من أن يقولوا إنه وجد وكان يأكل أولاده عند وضعهم ! » كما يتحدث الشعراء عن زحل في الأرباب .

والعيب في الله أعظم ، فالخطر فيه أعظم على الناس . إن الإلحاد يدع للعقل سبيلا إلى تأمل الفلسفة والتقوى الطبيعية والمبالاة بالقوانين والسمعة ، وهي صالحة لهدايته إلى ضرب من الفضيلة الظاهرة وإن لم ينتفع بهداية الدين .

ولكن الخرافة تنزع هذا كله وتسيطر على العقول ، ولم يحدث قط من أجل هذا أن اضطرت دعائم الدول من أجل الإلحاد لأنه يفتح أعينهم لأنفسهم ولا يعدوها . وقد كانت الحضارة مستقرة في بعض العصور الجانحة إلى الإلحاد كما كان عصر القيصر أوغسطس بين الرومان .

أما الخرافة فقد طالما أقلقَت الدول وطفَت على جوانب الحكومة بأجمعها فِعطلتها .

وصاحب السلطان في الخرافة هو الشعب الجاهل والحكماء تبع له في هذا السبيل ، فهي تعكس وضع الأمور وتقلب عمل العقول .

وقد قال بعض الكهان بحق في مجمع ترنت حيث شاعت آراء علماء الكلام<sup>(١)</sup> : إن علماء الكلام هؤلاء يشبهون الفلكيين الذين يرسمون الأفلاك والمدارات والمراكز للسيارات والكواكب لتفسير حركاتها حيث لا وجود في الخارج لتلك الرسوم ، وكذلك علماء الكلام قد رسموا في عالم الدين طائفة دقيقة من الشعائر والمعالِم لتيسير مهمة الكنيسة .

وتنجم الخرافة من عناصر كثيرة منها المحافل والمراسم الرائقة ، ومنها الإفراط في مظاهر التقوى المموهة ، ومنها الإسراف في تعظيم الموروثات القديمة التي تثقل لا محالة على كاهل الكنيسة ، ومنها احتيال رجال الدين لمنافعهم الخاصة ومطامعهم الشخصية ، والمغالاة في المقاصد الحسنة التي تفتح الباب للبدع والأفانين المستحدثة ، وإشراك التخمين الآدمي في الحكم الربانية مما هو خليق أن يضل الخواطر ويبلبل الأذهان .

ومن عناصر الخرافة عصور البربرية وبخاسبت العصور التي يرهقها العسر والبلاء .

(١) سميَ علماء الكلام لأنهم يشبهون علماء الكلام في الثقافة العربية ، ومن أمثلتهم توماس أكويناس .

والخرافة السافرة شيء مشوه ممسوخ .

ومما يزيد في تشويه القرد أنه يشبه الإنسان ، وكذلك شبه الخرافة بالشعائر الدينية يزيدا مسخاً على مسخ وتشويها على تشويه .  
واللحم إذا فسد تولدت منه الديدان الصغيرة ، وكذلك الشعائر الحسنة إذا فسدت تولدت منها تلك الشعوذات الصغيرة والتقاليد المسفة التي لا طائل وراءها .

ومن الخرافة ما يدعو إليه اجتناب الخرافة ، وذلك حين ينزع الإنسان الخرافة فيغلو في انتزاعها .

ولهذا وجب الحذر في هذا الباب كما وجب الحذر في كل تنظيف وانتقاء لئلا يذهب الحسن مع القبيح فلا يبقى هذا ولا ذاك ، كما يتفق كثيراً حين يتصدى الشعب لمهمة الإصلاح .

## الجمال

الفضيلة كالجوهر النفيس ، أجمل ما يرى في التركيب البسيط ، ولا شك أن الفضيلة ترى على أجمالها في الجسد القويم الذي لم تهزله رقة الملامح والقسمات ، والذي يغلب فيه وقار السميت على وسامة الضورة . فقليل ما يكون فرط الجمال مقرونا برجحان الفضيلة . كأنما الطبيعة كانت وهي تنشئ أصحاب الجمال الرائع في شاغل باتقانه واجتناب الخطأ في صنعه عن تحرى الكمال في غير هذه المزية .

ومن ثم يبدو عليهم الصقل والتهذيب وقلما يبدو منهم عظم المقدرة وعلو  
الهمة . فيملكون زمام السلوك ولا يملكون زمام الفضيلة .  
على أنها قاعدة لا تطرد في جميع الأحوال ، فقد كان أغسطس وتيتوس  
فسباسيوس وفيليب الجميل ملك فرنسا وادوارد الرابع واسماعيل الصفوى  
جميعا من أقدر الرجال ومن أجملهم في زمانهم .  
والتعير في الجمال مقدم على اللون والرشاقة فيه مقدمة على التعير ،  
بحيث يكون أجمل الجمال ذلك الجانب الذي لا تقوى الصور على تمثيله ،  
بل لا تستوعبه العين لأول نظرة .

وما من جمال فائق قط يخلو من غرابة التناسب بين أجزائه ، ولا ندرى  
لهذا أى المصورين أسخف وأهزل في فنه : زيوكس اليونانى أو البرت  
دورر الألمانى . فذاك يعمد إلى النسب الهندسية في تصويره ، وهذا يجمع  
شتى المحاسن من الوجوه المختلفة ليتقن منها تصوير وجه واحد . فلا يستحق  
صنعهم الاعجاب من غيرهم فيما أرى ، وإنما المصور كالموسيقى حين يستهوى  
الاسماع بوحى روحه وإلهام سليقته لا بتوفيق الأنعام من القواعد والأوزان  
وقد تلمح العين وجها تتأمله قسمة قسمة فلا ترى في كل قسمة منه  
ما يروق ويونق ، ولكنه مع هذا في جملته رائق الحيا وسيم الطلعة .  
وإذا صح ما قيل من أن قوام الجمال رشاقة الحركة فلا عجب أن ترى  
الناس مع السن يزدادون في السمات والوسامة ، كما قيل في المثل القديم :  
جميل خريف الجميل .

فالسمت في الشباب لا يتاح بغير تجميل ومجازة ، والسمت فيه مدين  
لسن الشباب .

والجمال بعد كفا كفة الصيف يسرع إليها العطب ولا يقسم لها الدوام ،  
ويتفق كثيراً أن يقود الشباب إلى العريضة ويخل باتزان الشيخوخة ،  
ولكنه مع هذا يزيد بهاء الفضيلة ويحجب دمامة الرذيلة حين يصاب عن  
الابتدال .

## الانتقام

الانتقام ضرب من العدل الأبدي الجموح ، كلما هجمت عليه طبيعة الإنسان  
وجب على القانون أن يمحوه ويقتله . فان العدوان الأول لا يتجاوز أن  
يكون اساءة إلى القانون . أما الانتقام لذلك العدوان فهو يعطل عمل القانون  
وينزع وظيفته من بين يديه .

والمنتقم ند للمعتدى عليه ، ولكن المسامح الغفور أعلى منه وأكرم ،  
وما زال من شأن الأمراء أن يهبوا العفو والغفران . وقد قال سليمان الحكيم :  
« من مجد الانسان أن يمر بالاساءة مر الكرام » .

وما مضى فات ولا يعود . وحسب العقلاء ما يشغلهم من شؤون الحاضر  
والمستقبل ، وإنما يعث في حق نفسه من يعينها بما مضى من أوقاته وشؤنه  
وما من أحد ينبغي أن يسيء حباً للمساءة ، وإنما يسيء المسيء طلباً

لمنفعة أو مسرة أو رفعة . فما بالى أغضب على انسان لأنه يجب نفسه فوق حبه إياى ؟ أما الذى يسىء لأنه مطبوع على الإساءة فالغضب منه أعجب ، لأن مثله كمثل الشوك الذى يخدش ويطعن لأنه لا يحسن غير ذلك .

إن أدنى الانتقام إلى القبول لذلك الانتقام للإساءات التى لا يصلحها القانون . ولكن على المنتقم فى هذه الحال أن يجعل انتقامه كذلك بحيث لا يعاقب القانون عليه ، وإلا كان عدوه راجحاً عليه ، وقد بادلته واحدة باثنتين !

ومن الناس من إذا انتقموا أحبوا أن يعرف غريمهم من أين جاءتة النعمة ، وهو أدنى إلى الكرم والنخوة . إذ لا تكون غبطة المنتقم بمحض الضرر بل بحمل غريمه على الندم . إلا أن الطبائع اللئيمة الماكرة ترسل انتقامها كالسهم الذى ينطلق فى الظلام .

وقد كانت لكوسموس دوق فلورنسة كلمة يأسه يقولها عن أصدقائه الخونة كأنه يرى أن أشباه هذه الأخطاء لا تقبل الغفران ، فكان يقول : « إننا أمرنا بأن نغفر لأعدائنا ولم تؤمر بأن نغفر لأصدقائنا » .

ولكن سحبة أيوب قد ارتفعت إلى نغم أجمل وأفضل حين قال :  
أناخذ من يد الله ما يسر ولا نرضى أن نأخذ منها يسوء ؟  
وهكذا يكون القول فى الأصدقاء على قدرهم .

ومن المحقق أن الرجل الذى يفكر فى الانتقام يبقى جراحه مفتوحة دامية وهى لولا ذلك أحرى أن تندمل وتبرأ .



والانتقام العام على الأرجح مقرون بالتوفيق ، كالانتقام لموت قيصر  
وبرتيناكس وهنرى الثالث الفرنسى<sup>(١)</sup> وغيرهم كثيرون .  
أما الانتقام الخاص فالأمر فيه على خلاف ذلك ، لأن الرجل المحتود  
الذى لا يصفح يعيش عيشة السواحر بين الأذى والكيد والبأساء .

### الشدة

كانت كلمة عالية من سنسكا على نمط الحكماء الرواقيين حيث قال :  
« إن حسنات الرخاء موضع رغبة . أما حسنات الشدة فهو موضع إعجاب » .  
والمعجزات — إذا كانت هي السيطرة على الطبيعة — فهى إذن أظهر  
ما تكون فى أيام الشدة والبلاء .

وأعلى من تلك الكلمة — أعلى جداً مما ينتظر من وثنى — قوله :  
« إن العظمة الحقيقية أن يكون لك ضعف إنسان ومنعة إله »

وإنها لكلمة أحق . بالشعر المنظوم حيث تسوغ هذه المبالغات . وقد  
شغل الشعراء حقاً بهذا المعنى . وهو الملحوظ فى تلك الأسطورة التى لا تخلو  
من سر وتعد من أقرب الأساطير إلى روح المسيحية ، ونعنى بها أسطورة  
هرقل حين ذهب لإطلاق پرومثيوس<sup>(٢)</sup> فعبر البحر اللجى فى قدرة من

(١) يقصد باكون أن الذين انتقموا لهؤلاء عاشوا موفقين بعد ذلك .

(٢) فى أساطير اليونان أن پرومثوس قبس النار من السماء لخدمة الآدميين فجزاه  
الأرباب عن ذلك بتقييده إلى صخرة تتناش على الطيور الجوارح ، وهو يمثل الطبيعة  
الأدبية فى طموحها إلى علويات السماء .

فخار . وكأنما تمثل هذه الأسطورة عزيمة المسيحي الذي يعبر أمواج هذه الدنيا في زورق واهن من اللحم والدم .

ونهبط من شاهق المبالغات فنقول إن فضيلة الرخاء هي الاعتدال وفضيلة الشدة هي الصبر والعزم الجليد ، وهي في مراتب الأخلاق أسمى وأشبه بالبطولة .

والرخاء بركة العهد القديم . أما الشدة فهي بركة العهد الجديد الذي هو طبقة من هداية الله أرفع ، ومن وحى الله أوضح وأصفى .

على أنك — حتى في العهد القديم — تسمع من مزامير داود نوح المآتم كما تسمع أناشيد الأعراس . وقد كانت عناية الكتاب بتفصيل محنة أيوب أكبر من عنايته بمتع سليمان .

وما خلا الرخاء قط من محاذر ومشنوعات ، ولا خلت الشدة قط من سلوة ورجاء .

وقد نتبين العبرة في مصنوعات الوشى والتطريز حيث نرى أن الظهارة المفرحة على البطانة القائمة أسر وأنق من الظهارة القائمة على البطانة المفرحة ، وخليق بهذا أن يطرد في الحكم على مسرة القلوب كما يطرد في مسرة العيون .

والحق أن الفضيلة كالعطر النفسى أجمل ما يسطع حين يحرق أو يعرك ، ومن شأن الرخاء أنه أصلح ما يكون لكشف الخسة والرذيلة . أما الفضيلة والعظمة فلا يكشفهما شيء كالحنّة والبلاء .

## الموت

يخاف الناس الموت كما يخاف الأطفال ولوج الظلام . ويزداد خوفهم بالأحاديث والروايات كما يزداد خوف الأطفال .

والتأمل في الموت كأنه « أجرة الخطيئة »<sup>(١)</sup> ومجاز العالم الآخر ورع وصلاح . ولكن الخوف منه — كأنه حق على طبيعة الأحياء — جبن وخور . وقد جاء في كلام رجال الدين عن الموت مزيج من الوهم والغرور ، فأنت تقرأ في بعض كتبهم عن سرعات الموت أن الإنسان قمين أن يعرف ما فيها من الألم إذا أصيب في طرف أصبعه . فيقيس عليه ألم الجسم كله حين يعمه الفساد والانحلال . مع أن الموت كثيراً ما يجلب للإنسان وألمه أهون من ألم جارحة من الجوارح ، وليست أهم الأعضاء أسرعها حساً . بل حقيقة الأمر أن حواشي الموت أروع من الموت نفسه كما يفقه من هو فيلسوف وعالم بطبائع الأشياء . فان الأئين والاختلاج وبكاء الاخوان ولباس الحداد ومشهد الجنائز وما شابهها هي التي تظهر لنا الموت في ذلك المظهر المفزع المرهوب .

وحقيق بالالتفات أنه ما من سورة في نفس الانسان إلا وهي كفتؤ بل غالبه للخوف من الموت . فلا يكون الموت إذن ذلك العدو المرهوب حيث يكون الإنسان في هذه الصعبة — صعبة السورات النفسية — التي تتيج له مناجزته والغلبة عليه !

---

(١) كلمة الرسول پولس

فالانتقام يغلب الموت ، والحب يستهين به ، والشرف يتطلع إليه ،  
والحزن يطير إليه ، والخوف يذهل عنه . بل نحن نعلم من تاريخ العاهل  
« أوتو » أن كثيراً من الناس قتلوا أنفسهم حنواً ورحمة حين ذبح مليكهم  
نفسه وهم من أصدق رعاياه .

ويضيف « سنيكا » رونقا إلى المعنى حين يقول : « قد يموت الرجل  
وليس بشجاع ولا بأس . إنما يموت سامة من حياة يكرر فيها الشيء بعد  
الشيء مرات » .

ومما هو أجدر مما تقدم بالانتفات أن نلاحظ ضآلة ما يحدثه الموت من  
التغير في جأش بعض المحتضرين الذين يظلون على حالهم من الثبات إلى  
الرمق الأخير . فمات أوغسطس وهو يحيى زوجته قائلاً : « ليفيا ! تذكري  
حياتنا الزوجية وعيشي واسعدى » .

ومات طيريوس كما قال المؤرخ تاسيتس وهو يهبط في قوة الجسد  
ولا يهبط في قوة الدهاء والمواربة . ومات فسبانيان مازحاً وهو يجلس على  
المقعد قائلاً : « أحسبني سأصير إلهاً » . ومد غلبا رقبته وهو يصيح بالجلاد :  
اضرب إن كان في ذلك خير لأمة الرومان ، وقال سبتيموس سقراس :  
انظر هل بقي لى ما أعمل !

إلى كثير من أمثال ذلك .

ولقد غلا الرواقيون في العناية بأمر الموت حتى ضاعفوا الرهبة منه بكثرة  
التأهب له والعناية به . وأحسن من ذلك أن يقال إن الرقدة الأخيرة تحسب

من نعم الحياة ، ومن الطبيعي أن يموت الانسان كما يولد . بل ربما كان كلاهما للطفل الصغير على درجة واحدة من الألم .

إن الذي يموت في مسعى مجد حيث لكالذي يجرح في حمية الجهاد لا يحس ساعة الجرح بألمه . ومن ثم يستطيع العقل المستغرق في العمل النافع أن يتجنب مخاوف الموت . وصدقني أن أعذب الأنعام لهي نعمة المنشدين : « الآن تظلل عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » حينما يبلغ الانسان غاية مسعاه ويحقق الرجاء فيه .

ومن مزايا الموت أنه يفتح الباب للذكر الحسن ويخمد جذوة الحسد كما قيل : إنك ستحب حين تموت .

### حكمة المعاش

« أو حكمة المرء لنفسه »

التملة مخلوق حكيم في شؤون نفسه ، ولكنه خبيث في شأن البستان أو الحديقة ، وكذلك الحكماء من الناس في أمور أنفسهم يهدرون المصالح العامة في سبيلها .

والواجب أن تقسم بين حب النفس وحقوق المجتمع قسمة رشيدة ، وليكن من صدق إخلاصك لنفسك ألا تكون غاشاً لغيرك ولا سيما الملك والوطن .

وإنه لمحور ضئيل أن يدور عمل الإنسان كله حول أثرته وهواه . تلك نزعة أرضية لا تعرف غير مركزها ، على حين تدور الكائنات التي لها قبس من السماء جميعاً حول كائن آخر تتحرى موافقته .

والرجوع بكل شيء إلى « الذات » خصلة ترتضى من الأمير المالك لأن ذاته فى الواقع ليست بذاته وكفى . وإنما يعود خيره وشره على حظوظ الأمة بأسرها .

أما أن تكون هذه الأثرة فى نفس رجل من رعايا الملك أو خادم من خدام الجمهورية فذلك هو الشر الموبق ، إذ ما من قضية تمر بيديه فى هذه الحالة إلا وجهها إلى وجهته التى تختلف كثيراً لا محالة عن وجهة سيده وحكومته .

ولهذا وجب على الأمراء والحكومات أن يختاروا أعوانهم من غير أصحاب هذا الخلق إلا أن تكون وجهتهم التى يخدمونها تالية فى اعتبارهم للوجهة العامة . فما يضعف الشر أن خلق الأثرة فى الأعوان يخل بحدود التناسب كل الإخلال ، لأن تقديم مصلحة التابع على مصلحة المتبوع فيه الكفاية من الإخلال بتناسب الأمور ، فاذا تمادى به الشطط حتى يجعل مصلحته الصغيرة مقدمة على مصالح سيده الكبرى فذلك هو النهاية فى قلب الأوضاع .

وتلك هى حال أعوان السوء من الولاة والخزنة والسفراء والقادة وغيرهم من خونة الموظفين والمستخدمين الذين ينقادون لمآربهم ومنافساتهم ويهدرون فى سبيلها أهم المصالح الموكولة إليهم من ساداتهم ، وهذا فضلا عن أن النفع الذى يأخذونه شبيه بأقذارهم وأن الضرر الذى يبذلونه فى لقائه شبيه بأقذار أولئك السادة ، ويصدق فيهم حينئذ أنهم كالذى يحرق البيت كله ليشوى على الحريق بيضات طعامه .

ومن العجب أن أمثال هؤلاء يظفرون أحياناً بالحظوة عند سادتهم ،  
لأنهم يصرفون همهم كله إلى مرضاة السادة ومنفعة أنفسهم ، وينسون  
مصلحة العمل في سبيل هذين الغرضين .

وعلى هذا يقال إن حكمة المرء لنفسه شيء معيب ، وفيه مشابهة لحكمة  
الجرذان التي تستوثق من هجر المنزل قبل سقوطه ، أو حكمة الثعلب الذي  
يطرد السرعوب<sup>(١)</sup> الذي يأويه في جحره ، أو حكمة التمساح الذي يذرى  
الدمع وهو يلتهم فريسته !

وجدير بالتنبه إليه هاهنا أن أولئك الذين يصفهم شيشرون بأنهم  
« محبوب أنفسهم بغير مزاحم » هم من وجوه عدة تعسون ، يضحون بكل شيء  
لإسعاد حظهم ثم يضحون في نهايتهم ضحكة نزوة من نزوات الحظ القلب  
الذي خيل إليهم أنهم قبضوا على جناحيه .

## المكر

المكر في عرفنا ضرب من الحكمة العسراء أو الحكمة العرجاء ، والفرق  
كبير بين رجل حكيم ورجل ماكر ، ولا نعني الفرق في النزاهة وحسب ،  
بل تتجاوزها إلى الفرق في المقدرة والكفاءة .

---

(١) اسم الحيوان بالإنجليزية Badger وهو كما جاء في معجم الحيوان للدكتور  
معلوف « من فصيلة السرايب . . . موطنه أوربة وجنوب آسيا . . . ولا وجود له  
في أفريقية وجزيرة العرب . وهو الحيوان الذي يصنع من شعره شعريات للحلاقة من  
أجود الأصناف »

وقد يحسن الرجل تنضيد الورق ولكنه لا يحسن اللعب ، وعلى هذا النحو يحسن الرجل الدس والمكيدة وهو فيما عدا ذلك عاجز ضعيف . ولنعلم أن فهم النفوس شيء وفهم المسائل والأمور شيء آخر ، فكم من رجل ذى حظوة مع الناس لا يضطلع بعمل كبير ، وهو في الغالب نمط الرجال الذين درسوا الناس فوق دراسة الكتب والعلوم . وأمثال هؤلاء هم أصلح للحيلة والمداراة منهم للمشورة والنصيحة ، ولا يصلحون مع ذلك إلا في البيئات التي درجوا عليها فلا يلبثون أن يضلوا الطريق إذا وضعتهم بين رفاق غير رفاقهم ومعشر غير معشرهم ، ومن ثم لا تصدق عليهم كلمة الأول<sup>(١)</sup> الذي قال : « إن أردت أن تعرف الأحمق من الكيس فارسلهما عاريتين وانظر ماذا يصنعان » .

وإنما هؤلاء المكرة كالبائع الطواف الذي يلفق في تجارته البخسة بين بعض السلع الصغيرة ، فليس من العسير أن تفضح هنا سر بضاعتهم المزجاة . فمن ضروب المكر أن تطيل النظر بعينيك إلى من تحدته على دأب اليسوعيين ، وكأى من عاقل له قلب مكنون وطلعة صافية ! وقد يحدث ذلك بالإغضاء أحياناً في حياء ووداعة كدأب اليسوعيين كذاك .

ومن ضروبه حين تكون حريصاً على بلوغ مأرب هام أن تلهى من لديه هذا المأرب بأحاديث أخرى في غير هذا الصدد لكيلا يتيقظ للاعتراض والمناقشة . وقد عرفت مستشاراً من أمناء السر لم يمثل قط بين يدي الملكة

(١) ينسب هذه الكلمة إلى الفيلسوف أرسيتيبس Aristippus



اليصابات لتوقيع بعض الأوراق إلا بدأ الحديث في معارض شتى من أحوال الدولة ليصرف اهتمامها عن تلك الأوراق .

وشبهه بهذه المفاجأة أن تبعث المسائل لصاحب الشأن وهو في عجل لا يتيح له أن ينعم النظر فيما هو معروض عليه .

وإذا أحب أحد أن يعرقل عملاً يتوقع من غيره أن يعرضه على نحو مقبول فعليه هو أن يصطنع الغيرة على إنجازها ويبادر بعرضه على النحو الذى يستوجب إحباطه والنفرة منه .

واعلم أن اقتضابك الحديث كأنك هممت بقول وعدلت عنه هو من دواعى الفضول فى نفس محدثك ويضاعف اشتياقه إلى المزيد .

وأجدى لك أن تلقى الكلام بعد سؤالك عنه من أن تتبرع به غير مسؤل ، فعليك أن تطرح لمحدثك طعماً للسؤال بتغيير سحنتك التى تعودها منك ، فيفتح أمامه الباب لسؤالك عن علة هذا التغير كما صنع نحميا « يوم أراد أن يسأله الملك فى الأمر الذى يعنيه ، فبدأ مكمداً أمامه على غير مألوفه . فادر الملك إلى سؤاله : « لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض ؟ » .

ويحسن فى الأمور الحساسة المسيئة أن ترود الطريق أولاً بكلام ليس بذى بال ، وتؤجل الكلام الخطير إلى أن يأتى عرضاً كأنه غير مقصود . كما صنع نرجس حين قص على العاهل كلوديوس نبأ بناء زوجته مسالينا بزواج آخر فى حياته هو الشيخ سيليوس Silius (١)

(١) تزوجت مسالينا من عشيقها سيليوس فى حياة زوجها كلوديوس واعتذرت من ذلك بأنها سمعت من المنجمين أن زوجاً لها سيصاب شر مصاب فأجبت أن تتصرف النبوءة إلى هذا الزوج دون كلوديوس !

ويحسن في المسائل التي يجب المرء أن يوارى فيها بواطنه أن يستعير لسان الدنيا ليقول ما يريد . فيقول مثلاً : إن « الدنيا كلها تتحدث بهذا ، وإنه قد شاع على الألسنة كيت وكيت .

وقد عرفت رجلاً كلما أرسل كتاباً في مسألة تعنيه أضافها إلى ذيل الحاشية كأنها جاءت بغير أكثرات .

وعرفت آخر كلما تهيأ للكلام تخطى ما يعنيه خاصة ومضى إلى غيره ثم عاد إليه كأنه قد أوشك أن ينساه !

وآخرون يهينون لمن يقصدونهم فرصة مفاجأتهم وفي أيديهم خطاب أو عمل مستغرب منهم حتى يساقوا إلى البوح بما هم راغبون في بيانه .

ومن ضروب المكر أن توحى إلى غيرك بكلام يقوله بدلا منك ثم تستفيد من نسبته إليه .

وقد عرفت رجلين كانا يتنافسان على منصب من مناصب أمانة السر عند الملكة اليبابات ، ولكنهما بقيا على وفاق بينهما يتشاوران في المسألة ولا يظهران المنافسة . فقال أحدهما لصاحبه : إن أمانة السر في عهد إديبار الدولة عمل محرج فهو لا يتطلع إليها . فذهب صاحبه يعيد هذه الكلمات مع رفاقه ويقول إنه لا يجد باعثاً له إلى طلب أمانة السر في عهد الإديبار . فأسرع منافسه وعنى بإبلاغ الملكة هذا الكلام على لسان غيره . فغضبت الملكة أشد الغضب من وصف عهدا بالعهد المدبر ، ولم تكن من ساعتها تطيق ترشيح الرجل لتلك الوظيفة .

وفي انجلترا ضرب من المكر يصطلحون على تسميته « بتقليب القرص في المقلاة » وفحواه أن يفضى الرجل بكلام إلى محدثه ثم يزعم أن محدثه هو الذى أفضى به إليه . ولا ريب أنه لمن أعسر الأمور إذا كان مدار الحديث بين اثنين أن تعرف من منهما المبدىء به ومن المعيد .

ومن أساليب إلقاء الشبهات عند بعض الناس أن يعمدوا إلى ذكرها بصيغة النفي والتاميح ! .. كذلك فعل تيجلينس Tigellinus وزير نيرون إذ التفت إلى برهوس Burrhus وقال : « إنتى لا أرى موضعا للخلاف إلا من حيث تمس سلامة الامبراطور » .

ومن الناس من لا يزالون على استعداد بصنوف من الحكايات والنوادر بحيث لا يوثقون إلى شىء أو يوعزون به إلا استطاعوا أن يضمّنوه حكاية أو نادرة ، فيجمعون بين الاحتراس فى الحديث وبين الإفشاء به فى قالب يسر سامعيه .

ويعد من أفانين المكر الناجح أن يصوغ المرء الجواب الذى يريده فى قالبه هو وتعبيره . فيقل التشبث به من الطرف الآخر .

وأغرب ما يلاحظ أن تراقب بعضهم كم يطول انتظارهم للوقت الذى يفوهون فيه بطواياهم ، وكم يحومون ويحومون حول الغاية التى يتعمدونها ، وكم يطرقون من المواضع البعيدة ليقترّبوا من تلك الغاية ... إنه لصبر عجيب ولكنه غير قليل

ويتفق كثيراً أن يودى السؤال الجريء المفاجيء إلى استطارة الإنسان وفتح مغاليقه . ومن هذا القبيل ذاك الذى بدل اسمه وخرج يتمتى فغافله

بعضهم من ورائه وناداه على غرة باسمه الصحيح ، ففسى نفسه واستدار على عجل إليه .

ولا نهاية لهذه الأفانين الصغيرة من بضاعة المكرة . وحبذا لو تيسر إحصاؤها جميعاً في سجل محفوظ . إذ ليس أضرب بالدول من الاغترار بالمكرة وحساباتهم حكماً . عقلاء .

على أن بعضهم قد يعرف ضروب المكر ولا يعرف مع هذا مداخلها ومخارجها ، مثلهم مثل البيت الذي حسنت أبوابه وسلاله ولم تحسن حجرة واحدة من حجراته . فتراهم ينتهون إلى حلول مقبولة ولكنهم لا يقدرّون على بحث المسائل ومناقشتها . ويروقههم كثيراً مع عجزهم هذا أن يحسبوا من نوى القدرة على العبث بالآخرين وتسخيرهم ، ويعتمدون على غش الآخرين دون المبالاة بصواب تصرفاتهم . ولكن سليمان الحكيم يقول : « حكمة الذكي فهم طريقه وغباوة الجهال غش . . . والغبي يصدق كل كلمة والذكي يتنبه إلى خطواته » .

### الفتن والقلاقل

رعاة الشعوب أحوج الناس أن يعرفوا علامات العواصف التي تهب على الحكومات وتشيع عند ما تزول الفوارق وتتقارب الأقدار كما تشيع عواصف الطبيعة عند ما يتساوى الليل والنهار . وللدول علامات قبل هبوب العواصف عليها كتلك العلامات التي تشاهد في انطلاق الهواء وجيشان الماء قبل هبوب الأعاصير . وكثيراً ما تنذرنا الشمس — كما

قال فرجيل — بما في الغيب من قلاقل هوجاء وحروب خفية .  
ومن تلك العلامات شيوع الحملات والمثالب التي ترمى بها الحكومات ،  
ووفرة الأخبار الكاذبة التي تحوم حول الحكومات وتتلقاها الأسماع بالقبول  
السريع . وقد نسب فرجيل الشهرة أو الإشاعة فقال إنها أخت الحيازة  
والعالمية ، وإن الأرض أو غيرها الغضب على السماء فأخرجت الشهرة  
أو الإشاعة من جوفها وكانت آخر الذرية .

وكأنما الاشاعات بقايا فتن مضت ، وهي في الحقيقة طلائع فتن ستأتي  
من عالم الغيب . على أنه قد أحسن التشبيه حيث رأى أن الاشاعات  
والقلاقل لا تختلف فيما بينها إلا كاختلاف الشقيقة من الشقيق والذكر من  
الأثني ، ولا سيما حين يصل الأمر إلى الحد الذي يساء فيه الظن بأجل  
أعمال الحكومات وأدعاها إلى الرضى والثناء ، وذلك كما قال « تاسيتس »  
إن الشهرة السيئة إذا استعاض أمرها واشتعل لهيها كان سيء الأعمال  
وحسنا على السواء من دواعي المقت والاستياء .

ولا يلزم من هذا أن الفتن تتق بالصرامة المفرطة في قمع الاشاعات السيئة  
إذ كانت هذه الاشاعات من علامات الفتنة ، فإن احتقارها في كثير من  
الأحيان ربما كان أدعى إلى انقضائها من حيث يطول أجلها بمحاولة  
القضاء عليها

وينبغي الارتياح أيضاً في ذلك الضرب من الطاعة الذي تحدث عنه  
تاسيتس . حيث قال : « إنهم يؤدون واجباتهم ولكنهم يؤدونها مع هذا  
وبودهم لو ينقدون رؤساءهم ولا ينقادون لهم »

فان اللجاجة والالتهام واللفظ في حديث الأوامر والتدبيرات كلها نوع من نفص النير عن الأعناق ومحاولة العصيان ، ولا سيما يوم يلاحظ أن الذين يدافعون عن الأوامر والتوجيهات يدافعون عنها هامسين هيايين ، وأن الذين ينكرونها يعلنون إنكارها مجترئين غير حافلين .

وقد أحسن ما كيفيلى الملاحظة بانتباهه إلى سوء العاقبة إذ يجنح الأمراء إلى جانب من جوانب الشعب وهم أحجى أن يكونوا آباء لجميع أحزابه على السواء . فتلك أشبه الأحوال بحال الزورق الذى يوشك أن ينقلب لتقل الوسق فيه على جانب دون جانب ، ومثل ذلك حدث في عهد هنرى الثالث ملك فرنسا إذ تحالف مع بعض رعاياه لاستئصال الطائفة البروستانتية ثم انقلب هذا الحلف عليه بعيد ذلك بقليل . وذلك أن سلطان الملوك إذا أصبح تابعاً لقضية من القضايا وأصبحت هناك قيود أوثق رباطا من رباط السيادة الملكية فقد ترزعزع مكانهم ووهنت قبضتهم على زمام الأمور .

وعلامه من علامات فقدان الحكومة هيبتها أن تجرى المنازعات والشحناء علانية وبغير تقيه ومبالاة . فان حركات عظماء الدولة ينبغى أن تجرى على مثال حركات الكواكب والسيارات فى المذهب القديم ، إذ يرى أصحاب ذلك المذهب أن هذه الكواكب ينبغى أن تسرع الاستجابة لمصدر الحركة الأولى وأن تتحرك هى حركتها الذاتية فى رفق وسهولة<sup>(١)</sup> .

(١) يشير باكون هنا إلى مذهب بطليموس عن مصادر الحركة الفلكية قبل أن يبلغه مذهب كوبر نيكوس

فإذا شوهذ أن عطاء الدولة فى حركتهم الذاتية يعنفون بها ذلك العنف الذى ينزع منهم خشية ملوكهم كما قال تاسيتس فتلك علامة الخروج من مدارها واضطراب أمرها ، وما زال توقيع الملوك هو الحزام الالهى الذى يؤيدهم به الله ويحله متى شاء .

وعلى الناس أن يسألوا الله السلامة كلما اضطربت دعامة من دعائم الدولة الأربع وهى الدين والقضاء والمشورة والخزانة .

ولندع هذا الحديث عن علامات الفتن لنزيده إيضاحاً فيما يلى ونأخذ أولاً فى الحديث عن مادة الفتنة ثم بواعثها ثم وسائل علاجها .

فأما مادة الفتنة فشىء لا غنى عن دراسته مذ كان خير الوسائل لاتقاء الفتنة حيثما اتسع الوقت لاتقائها أن تنزع منها مادتها . ونحن لا نعلم — والوقود حاضر مهياً للاشتعال — متى تنفدح الشرارة التى تلهب فيه النار .

وعلى هذا نقول إن مادة الفتنة على نوعين : أحدهما الفاقة وثانيهما فرط السخط والتذمر ، وقد تبينت هذه الحقيقة من مراقبة الكثير من الدول الدائلة والأحوال الحائلة ، وقد لاحظ الشاعر لوكان Lucan أحسن الملاحظة طواع الفتنة فى رومة قبل الحرب الأهلية ، فقال : « وهكذا نجم الربا وجشع المغانم فضياع الأمانة فالجرب التى يرجو منافعها كثيرون » .

فالجرب التى يرجو منافعها كثيرون علامة صادقة لا تخطىء من علامات الدول التى تتحفز فيها الفتن والقلال . فاذا اقترنت هذه النزاع المالية

بالضنك والحاجة الملحة في الطبقة الفقيرة فالخطر داهم عظيم ، لأن ألعن الثورات ثورة البطون .

أما عناصر السخط والتذمر فهي في البنية السياسية مثلها مثل الاخلاط في البنية الجسدية كلما طغت عليها الحمى في حرارة لا تطيقها .

ولا يكن هم الملوك يومئذ أن يقيسوا الخطر بمقدار ما في الشكاية من الحق والباطل ، لأن ذلك معناه أن الشعوب تحتكم إلى العقل والرشد وهي في أحيان كثيرة تظاً على منافعها بقدميها من حيث لا تدري .

ولا يكن من همهم كذلك أن يقيسوا الخطر بكبر الشكاية التي من أجلها يثورون أو صغرها . فان أخطر الشكايات لتلك التي يربى فيها الخوف على الألم كما قال يبنى في رسائله : « إن الألم له حدود . أما الخوف فليس له حدود » .

وعدا هذا يشاهد في المظالم الكبرى أن الأمور التي تبتلى الصبر تحدد الشجاعة والجرأة في الوقت نفسه ، وليس الأمر في الخوف والتوجس كذلك ولا يخطر للملوك أن يأمنوا الاستياء لأنه تكرر أحياناً وطال في أحيان أخرى دون أن تنجم عنه الفتنة . فانه لصحيح ولا ريب أن الزوبعة لا تأتي من كل دخان أو بخار ، ولكنه صحيح كذلك ولا ريب أن الزوبعة تأتي في النهاية وإن تبدد الدخان حيناً بعد حين . وصدق الأسبان إذ يقولون في أمثالهم : « إن الجبل ينقطع أخيراً بأضعف شدة ! » .

أما أسباب الفتن وبواعثها فهي البدع في الدين والضرائب وتبديل







وفي أخيلة الشعراء أن الأرباب قد ائتمرت بينها على تقييد كبيرها جوبيتر ، فأشار عليه بالاس أن يرسل في طلب المارد بريارس Briareus لينجده بأيديه المائة . . . وهو رمز يدل الملوك على مبلغ السلامة في التعويل على حسن النية والاخلاص في السواد من الناس .

والحرية المعتدلة في التفريج عن الشكايات وأسباب السخط والاستياء وسيلة طيبة في اتقاء الفتن ، ما لم تتجاوز حدها إلى القحة والاجترار . فان حبس الأخلاط ورد القيح إلى الجوف يخلق الدامل والأدواء .

\*\*\*

وإن دور أيمثيوس<sup>(١)</sup> ليصلح لپرومثيوس في أحوال السخط والتذمر ، إذ ليس ثمة عدة أصلح لاتقائها . فلما طارت الشرور من الحق عمد أيمثيوس أخيراً إلى العطاء فحفظ الرجاء في قرارة الحق وأبقاه .

ومما لامرأ فيه أن استخدام السياسية والمحاولة في تغذية الآمال وحمل الناس من أمل إلى أمل هو من خير ما يتخذ ترياقاً مانعاً لسوم السخط والشكاية ، وآية من الآيات على حسن تدبير الحكومة وسداد تصرفها . فستولى على قلوب الرعايا بالأمل حيث يؤديها أن تستولى عليها بالكفاية ،

---

(١) أيمثيوس وپرومثيوس في الأساطير اليونانية اخوان تعاونا على خلق الانسان مخلوق جوبيتر بندورا — أول انثى انسانية — على سبيل الانتقام منهما ، فرفضها پرومثيوس وقبلها أخوه ، وكان معها حق مغلق ففتحها ايمثيوس لينظر ما فيه فطارت منه الشرور جميعاً ، فأسرع إلى اقفاله ووجد بعد ذلك أنه لم يبق فيه إلا الرجاء

وتعالج الأمور علاجاً لا يأذن لشر من الشرور أن يستفحل حتى لا تنفرج منه ندحة للرجاء ، وذلك أهون الصعوبتين ، لأن الأفراد والطوائف يجدون ثمة وسائل للعزاء وتمليق أنفسهم ، أو يموهون على أنفسهم ما هم مرتابون فيه ومن الحيلة الحسنة والوقاية النافعة ألا يكون ثمة رأس صالح لاتفاق الناس حوله والالتفاف به في أيام السخط والشكاية . ونعني بالرأس الصالح من له عظمة وسمعة وللساخطين به ثقة ورجاء ، فيتطلعون إليه وهم يعمون أنه مثلهم ساخط من أجل شؤنه التي تعنيه .

وأمثال هؤلاء الرجال إما أن تستميلهم الدولة وتسترضيهم جداً وحقاً وإما أن تقاومهم بنظرهم في الجماعة فيقسمونها عليهم .

وعلى الجملة لاتعد الحيلة في تفريق الطوائف التي تعادى الحكومة وإقصاء نفوذها و بث الوقية بينها محاولة غير محمودة عند الضرورة المويئسة ، وهذه الضرورة هي ابتلاء الحكومة بالشقاق في أعمالها وملاقاتها لخصوم متساندين بينهم متفقين عليها .

وأذكر أن بعض الأقوال اللاذعة البراقة التي يلفظ بها الأمراء كثيراً ما تلهب نيران الفتن والقلق . فقيصر قد أضر بنفسه غاية الضرر بقوله عن سولا ( إنه لا يعرف الكتابة ولذلك يملئ ارادته ) لأن هذه التورية قد أياست الناس من تخليه يوماً من الأيام عن سلطان الاستبداد ، وأساء غلبا Galba إلى نفسه حيث قال إنه لا يشتري جنوده ولكنه يكتبهم ، قاياس منه الجنود وأمثالهم .





الفكر والقريحة : « وقد قال سنيكا إن الموت يهبط ثقيلًا على من يموت وهو لا يدري وغيره يدرون جد الدراية » .

ويستطيع صاحب المنصب الرفيع أن يفعل الخير والشر . وفعل الشر لعنة . فإن أحسن الحالات بالنظر إليه ألا تريده ، وتليه الحالة اللاحقة وهي ألا تستطيعه .

لكن استطاعة الخير هي المسوغ الحق الجميل للطموح إلى الرفعة . لأن النيات الخيرة — وإن كانت مقبولة عند الله — ليست في حساب الناس إلا كالأحلام ما لم تخرج من حيز النية إلى النفاذ ، ولا يتسنى ذلك إلا بقوة المنصب الذي يشرف منه الرجل على سواه .

والمرء في جهده غاية هي الافضال وصالح الأعمال ، وإن رؤية هذه الغاية تتحقق لهي الرضا والقبطة . ومن تشبه بالله في الخلق حرى أن يتشبه به في النظر إلى آثاره ، وقد جاء في التنزيل أنه جل شأنه نظر إلى صنع يديه فإذا هو كله جميل بالغ في الجمال » . ومن ثم جاء « السبت » والرضى « بعد ستة أيام من الخلق والتكوين » .

وعليك في تصريف أعمالك أن تتخذ القدوة لأنها هداية . ثم تتخذ نفسك مقياسًا لك بعد فترة من الزمن لترى هل كان صنيعك في البداية خيرًا من ذلك . ولا تنس أمثلة الذين أساءوا الصنيع في مثل مكانك لتجتنب الاساءة لا لتتحي بالأممة عليها .

فكن إذن مصلحًا بغير زهو ولا ملامة للأزمة السابقة أو الرجال

السابقين، وليكن همك أن تنشئ السوابق الحسنة لمن يليك كما تتبع السوابق الحسنة ممن تقدم عليك .

وارجع بالأمور إلى أصولها لتتظن كيف حاق بها النقص والإدبار ، واقتبس العبرة من كلا الزمنين : من الزمن السابق فيما هو الأكمل ، ومن الزمن الأخير فيما هو الأصلاح والأوفق والميسور بالقياس إليه . واجعل عملك على وتيرة منتظمة ليعرف الناس سلفا ما يتربحون منك ، ولكن لا تلتزم الجزم والمجود على حال . وحسبك إذا انحرفت عن جادتك أن تحسن الإبانة عن علة هذا الانحراف .

واحفظ لمنصبك حقه ، ولكن في غير حاجة إلى إثارة النصوص القانونية ، وإنما تحفظ له حقه في سكون وبالعمل الواقع دون اللجاجة والدعوى .

واحفظ كذلك حق ما دونك من المناصب ، واعتبر أنه لأشرف لك أن توجه مرؤسيك وأنت في مكان الرئاسة من أن تتولى أعمالهم كلها بيديك . واطلب المعونة والنصيحة فيما يمس منصبك ، ولا تقص عنك أولئك الذين يتطوعون لك باخبارهم ومعلوماتهم كأنهم فضوليون . بل تقبل منهم أحسن قبول .

وللسلطان آفات أشهرها أربع : وهى التراخي والفساد والصلف والمحاباة وعلاج التراخي تسهيل الوصول إليك وتعيين المواعيد وأتمام ما في يدك واجتناب المداخلة بين الأعمال إلا للضرورة التي لا محيد عنها .







## الصداقة

لقد كان عسيراً عليه — ذاك الذى نطق بهذه الكلمات<sup>(١)</sup> — أن يجمع من الحق والباطل فى كلمات قليلة مثل ما جمعه فى كلماته تلك حيث قال : « من سرته الوحدة فهو أحد اثنين : إما حيوان آبد أو إله » .

فانه من الحق الذى لا مرأى فيه أن نفور الإنسان من المجتمع وبغضه إياه فيهما شيء من الحيوانية المستوحشة . ولكن ليس من الحق أن هذه الخلقة تمت بشيء إلى الصفات الإلهية إلا أن يكون حب الوحدة لغرض غير السرور بالوحدة وهو رياضة النفس على سلوك فى الحياة أرفع وأقوم ، كما كان بعض الوثنيين يصنع خطأ وتمويها فيما زعموا من الروايات عن ابيمنديس الكندى ونوما الرومانى وامبيدكليس الصقلى وأبولنيوس التيانى<sup>(٢)</sup> ، أو كما كان بعض آباء الكنيسة الأولين وبعض النساك يصنعون عن صدق وحقيقة . على أن الناس قلما يفهمون المقصود بالوحدة أو مداها . فان الزحام لا يحسب صحبة ، والوجوه المنظورة ما هى إلا معرض من معارض الصور ، وأصدقاء الكلام ما هى إلا رنين أجوف حين يخلو من المودة . وصدق « المثل الآتينى القائل إنه كلما ازداد سكان المدينة ازدادت الوحدة » لأن

(١) هو أرسطو فى كتاب السياسة .

(٢) قيل ان ابيمنديس نام خمسين سنة ، ونوما الملك الرومانى من ملوك الخرافات كان يقضى معظم وقته فى مساجلة عرائس الطبيعة ، وأمبيدكليس كان يتصل بالسماء مرات ، إلى أمثال هذه الأساطير .

الصحاب في المدن الكبيرة يتفرقون فلا تعتقد بينهم تلك الأصرة التي تكون بين أهل الجيرة الواحدة .

ونخطو بعد هذا خطوة فنقول إن الوحدة التي تعوزك فيها الصحبة الصادقة هي بؤس ونكد لأن الدنيا بغير الصحبة الصادقة قفر موحش لا أنس فيه . ومن كان في هذه الوحشة محروما بفطرته من الشعور بالصدقة فهو إنما يستمد فطرته من طبيعة الوحش لا من طبيعة الانسان .

وأهم ثمرات الصداقة أن يفرغ الصديق فؤاده لصديقه ميلا طبيعياً توحى به وتدعو إليه كل عاطفة وكل شعور . وقد علمنا أن أمراض الاحتباس والاختناق هي شر الأمراض الجسدية وهي كذلك شر الأمراض العقلية .

وقد تتناول العشبنة الغربية لإطلاق الكبد ، وبرادة الحديد لإطلاق المرارة ، ومسحوق الكبريت للرئة والجندباوستر للدماغ . ولكن القلب لا يطلقه دواء كدواء الاطمئنان إلى صديق صادق تبثه شكاتك وأفراحك ومخاوفك وآمالك وشكوكك ومشوراتك ، وكل ما يتقل على القلب ويخرجه ، كأنك تؤدي مراسم الاعتراف .

ومن الغرائب التي تلاحظ في هذا الصدد أن ترى مبلغ تقويم الملوكة العظاء لهذه الثمرة من ثمرات الصداقة . فانها لذات قيمة عزيزة جداً عليهم مذ كانوا يشترونها أحياناً مجازفين بسلامتهم ورفعة شأنهم ، فلا قبل لهم — لبعده المسافة بين أقدارهم وأقدار رعاياهم — أن يصلوا إلى تلك الثمرة إلا





الشيوع في رسالة يقول « إننى أحب الرجل حباً جعلنى أتمنى له عمراً أطول من عمري » .

ولو كان هؤلاء الأمراء من قبيل طراجان أو ماركس اوريليوس لخطر فى البال أنهم صنعوا ما صنعوا لفرط الطيبة والمسالمة ، أما وهم من هم من قوة العقل والجد وصرامة الخلق والأثرة البالغة فان ذلك لدليل واضح على أنهم شعروا فى نعمتهم بنقص لا يتمه إلا الصديق ، وكانوا مع ذلك أمراء ذوى أزواج وأبناء وإخوة وأخوات فلم يغنهم ذلك كله من لذة الصداقة ولا ننس ما لاحظ كومينس Comineus على سيده الأول الدوق شارل الجليد من كتمان الشديد لأسراره حتى لا يبوح بها لكائن من كان ، وحتى كان من جراء ذلك فى أخريات أيامه أن جنى هذا الكتمان الشديد على صوابه وغام على تفكيره .

ولو شاء كومينس لقال مثل هذا المقال عن سيده الثانى لويس الحادى عشر الذى كان كتمان مصدر عذابه . وقول الفيلسوف فيثاغوراس فى أمثولته « لا تأكل قلبك بهمومك » مظلم ولكنه صحيح . ولو أننا قسونا فى التعبير بعض الشيء لقلنا إن أولئك الرجال الذين يعوزهم الأصدقاء الذين يفتحون لهم صدورهم لهم كأولئك الهمج المستوحشين ممن يأكلون لحوم البشر ولكنهم يأكلون قلوبهم !

على إنى أختم هذه العجالة عن ثمرات الصداقة بشيء من العجب بمكان ، وهو أن إفضاء الرجل إلى صديقه بسريرة فؤاده يأتى بالنقيضين ، فيضاعف

السرور ضعفين ويشطر الحزن شطرين ، وما من صديق يبث صديقه مسراته إلا ازداد سروراً على سروره ، وما من صديق يبث صديقه حزنه إلا قل حزنه بعد بثه إياه . ويصدق على العقل في هذا المعنى ما يزعمه أصحاب الكيمياء لأحجارهم من جمع النقيضين في علاج الأجساد ولكن لفائدة الطبيعة وصلاحها . ولا حاجة بنا في الحقيقة إلى مدد من أصحاب الكيمياء لأن الأمر واضح كل الوضوح في مجرى الطبيعة المألوف . إذ لا يزال ملحوظاً أن اتحاد الأجسام يزيد القوة وينعشها ويضعف أثر الصدمات ويهونها ، وكذلك اتحاد العقول .

وثمره أخرى من ثمرات الصداقة أنها مصححة لازمة للفهم كما أن الثمرة الأولى التي قدمنا الكلام عليها مصححة لازمة للشعور . فإذا كانت الصداقة تردُّ نهار الشعور صحواً من الزوابع والأعاصير فهي في عالم الفهم نهار ساطع يبدد ظلمة الحيرة والاختلاط . ولا نريد بهذا أن نشير إلى النصيحة الخالصة التي يتلقاها الرجل من صديقه الأمين وكفى ، ولكننا قبل الوصول إلى معرض النصيحة نلاحظ أن الفكر المثقل بثتى الهموم تسلس خواطره وتنضح وتناسق وهو يتحدث بها إلى غيره . فيسهل له عرضها ويتمثلها وهي مفرغة في قالب الكلام ، ويخرج من ثم أعقل مما كان فإذا هو قد استفاد من ساعة في الحديث ما لا يستفاد من يوم في التأمل والتفكير .

وقد أحسن تيموستكليس إذ قال لملك الفرس إن الحدبث كنسيج



أراس<sup>(١)</sup> الذى تبدو نقوشه حين يبسط ، ولكن الفكر يطويها كما تنطوى  
فى الكارات والأضابير .

وليست هذه الثمرة الثانية من ثمرات الصداقة مقصورة على الأصدقاء  
الذين يستطيعون إسداء النصيحة الحسنة والمشورة الصالحة ، وإن كان هؤلاء  
خيراً وأجدى ولا مرء . ولكنه — بغير هذا — يعلم حقيقة نفسه ويعرض  
أفكاره للنور ويشق قريحته كما يشق الحجر النصول وهو بنفسه غير قاطع .  
وعلى الجملة إنه لخير للانسان أن يناجى تمثالا أو صورة من أن يخنق أفكاره  
ويحتبسها .

ولإتمام فضل هذه الثمرة نذكر تلك المزية المشهورة التى يفتن لها العامة  
مع الخاصة وهى مزية النصيحة الخالصة من الصديق الأمين .  
وقد أصاب هرقليطس فى قوله « إن النور الجاف أفضل وأبقى » . . .  
فلا مرء أن النور الذى يتلقاه المرء بالمشورة من غيره أجف من النور الذى  
يتلقاه من ذهنه وحكمه وهما أبداً مبللان مشبعان بالأهواء والعادات ، وإن  
الفرق بين مشورة الصديق ومشورة المرء لنفسه لكالفرق بين صاحب  
المخلص والصاحب الملق المتزلف . فليس هنالك من هو أكثر ملقا للمرء  
من ذات نفسه ولا دواء لهذا الملق أنجع من حرية صديق .

والنصيحة ضربان : نصيحة فى شئون السلوك والآداب ونصيحة فى  
شئون المرافق والمعاملات ، وفى شئون السلوك والآداب ليس أصح للعقل

(١) يلاحظ الخطأ هنا فى ذكر البلدة الفرنسية أراس

ولا أعظم وقاية من العتب الخالص على لسان صديق ، إذ كان إلحاف المرء على نفسه في الحساب دواء يوجع ويضنى ، وكانت قراءة كتب الأخلاق الجيدة لا تخلو من الفتور والتفاهة ، وكانت مراقبة أخطائنا في الآخرين لا تجمل بنا في بعض الأحيان ، إلا عتب الصديق فانه لأجدى من ذلك كله ، وأعنى بالأجدى هنا ما هو أجدى في تناول وأجدى في العلاج .

ولقد نعجب كم من الأخطاء الجسام والسخافات البالغات يقع فيها الكثيرون — ولا سيما العظماء — من جراء فقدان الصديق الذي ينبتهم إليها ، وفي ذلك ما فيه من ضير على سمعتهم ومصالحهم . فما أشبه هؤلاء بمن قال فيهم القديس جيمس إنهم ينظرون إلى وجوههم في المرآة فينسونها !

أما في شئون المرافق والمعاملات فليقل من شاء إن عينين لا تبصران خيراً من عين واحدة ، وإن اللاعب يرى ما لا يراه المتفرج ، وإن الرجل الغاضب له من العقل ما للرجل الذي قرأ الدروس ووعاها ، وإن البندقية تنطلق وهي على ادراع كما تنطلق وهي على سائر الجسد ، وأشبه ذلك من الأخيلة والتمثيلات التي تزين لمن يرددها أنه هو كل شيء ولا شيء سواه .

فلا شبهة بعد كل ما يقال في نفع المشورة لتقويم الأعمال ، وإذا خطر لبعضهم أن يتلقى النصيحة ولكن مجزأةً من هذا في عمل ومن غيره في عمل آخر ، فأجدى عليه فيما نرى ألا يلتمس النصيح على الإطلاق ، لأنه يتعرض لخطرين ؛ أحدهما ألا يظفر بالنصح الخالص وهو نادر جداً ما لم يكن من صديق وفيّ كامل الصداقة ، فيأتيه النصيح معوجاً ملتويّاً موجهاً إلى مأرب

يبيغيه من أشار عليه ، وانخطر الآخر أن يُزجى إليه النصح ضاراً غير مأمون ولو عن حسن نية ممن أوجه إليه ، فيمتزج فيه العلاج بالأذى كمن يستشير طبيباً خبيراً بعلاج الداء الذى يشكو منه المريض ولكنه لا علم له بطبيعة جسده . فيشفيه لساعته من دائه ولكنه يخل بسلامة البنية من ناحية أخرى ، فيشفى المرض ويقتل المريض !

بيد أن الصديق العليم بدخيلة صديقه قيم أن يحذر وهو يخدم المصلحة الحاضرة من تعريض مصلحة غيرها للحيث والضياع . وهذا الذى يوجب عليك ألا تعول على النصائح المتفرقة التى هى إلى التضييل والتشتيت أقرب منها إلى الراحة والتوجيه .

وتأتى الثمرة الأخيرة بعد هاتين الثمرتين الجليلتين وهما سلام النفس ومعوونة العقل ، وتلك ثمرة كأنها فى الثمار الرمان التى تحتوى الواحدة منها المئات من الفواكه الصغار ، لأنها تحتوى فيها المساعدة والمشاركة فى شتى الأعمال والمناسبات ، ولن نحصيها إلا إذا أحصينا تلك المقاصد الكثيرة التى لا يستقل بها المرء وحده ، فنعلم يومئذ أن الأقدمين قصرُوا فى وصفهم حين قالوا إن الصديق نفس أخرى لأنه فى الواقع أقوم من نفس أخرى .

فللإنسان مداه فى الحياة ، وإنه ليعانى الموت مرات فى اشتها كل ما يشتهيه من صميم قلبه كترية الأبناء وإنجاز الأعمال وغير ذلك من المطالب المختلفة ، فإذا كان له صديق وفى فإنه خليق أن يستريح إلى ضمان هذه

الأمر من بعده بحيث يصح أن يقال إنه مزود في هذه الدنيا بجياتين .  
وللإنسان جسد يحتويه مكان واحد ، وحيثما توجد الصداقة فهناك  
يتسنى له أن يعمل في أما كن عدة بنفسه وبمعمونة صديقه .

وكم من شيء لا يستطيع المرء أن يقوله أو يعنله وهو موفور الكرامة والحياء ؟  
فليس في وسعه أن يبدي فضائله ومزاياه وهو محتفظ بجيائه فضلاً عن الإشادة  
بها وتمجيدها ، وليس في وسعه أحياناً أن ينزل إلى التوسل والرجاء ،  
وأشباه ذلك كثير .

إلا أن ذلك وأشباهه يقوله الصديق وهو متجمل بوفائه من حيث لا يفوه  
به المرء إلا وهو خجل متهيب .

ولكل امرئ صلوات وعلاقات لا يستطيع أن يتجاهلها أو يتخطى  
حدودها . فلا يسعه أن يكلم ابنه إلا كلام والد ، أو زوجه إلا كلام زوج ،  
أو عدوه إلا على شروط وقيود ، أما الصديق ففي وسعه أن يتكلم حيث  
شاء بما تقضى به المناسبة غير مقيد في كلامه بذلك الاعتبار .

ولا نهاية لإحصاء هذه الفوائد والمزايا . فحسبنا أن نضع القاعدة على  
الإجمال ، وأن نعلم أن الذى يعنيه أن يقوم بمطالبه على الوجه الأمثل فعليه  
أن يخلى الميدان ما لم يكن له صديق أمين .

## عظمة الممالك والدول

كانت كلمات تمستوكليس<sup>(١)</sup> — على ما فيها من الغطرسة والتعظيم لنفسه — تشمل على ملاحظات خطيرة وحكم جليلة ينتفع بها الآخرون . سئل في وليمة أن يعزف على عود فقال إنه لا يحسن أن يجس الأوتار ولكنه قادر على أن يجعل البلد الصغير مدينة عظيمة .

وهي كلمات إذا أجريناها مجرى الرمز والتمثيل تبدى لنا نوعين من الكفاءة في أولئك الذين يتولون أعمال الحكومات . فإننا إذا عرضنا سير الساسة والمشيرين وجدنا منهم في الندرة من يقدرون على أن يجعلوا الحكومة الصغيرة دولة عظيمة ولكنهم لا يقدرون على جس الأوتار ، ومنهم من يحسنون جس الأوتار ويرعون فيها ولا يعملون من الحكومة الصغيرة دولة عظيمة . كأنما تتجه قدرتهم إلى الوجهة الأخرى وهي الهبوط بالدول العامرة إلى حضيض الدمار والدثور .

والحق أن هاتيك الصناعات المسفة التي ينال بها بعض المشيرين والحكام حظوةً عند ساداتهم وإعجاباً من النوغاء لا تستحق في جملتها أن تسمى باسم آخر غير اسم اللعب بالأوتار . إذ هي أمور تسرف في حينها وتجمل في ذاتها ولا تؤدي إلى منفعة أو تقدم للحكومات التي تخدمها .

---

(١) القائد الأثيني الذي كان له الفضل في انتصار اليونان بمعركة سلاميس .

وهناك ولا ريب حكام ومشيرون يوصفون بأنهم قادرون على حسن التدبير واتقاء المزالق والمآزق ولكنهم أبعد ما يكونون عن القدرة على توسيع الدولة وتزويدها بالقوة والعدة واليسار.

وندع العاملين كيف كانوا ونظر إلى العمل المقصود وهو عظمة الدول الحقيقية ووسائل تلك العظمة . وهو مبحث جدير ألا يغرب عن بال الأمراء العطاء لكيلا يدفعهم الغلو في تقدير سطوتهم إلى استنفاد جهودهم في المساعي الباطلة ، أو يدفعهم الشك في تلك القوة والنزول بها عن قدرها إلى الجبن والشح في الرأي والمشورة .

إن عظمة الدولة في سعة أقطارها تدخل في تقدير القياس كما تدخل عظمة أموالها وخزانتها في تقدير الحساب .

وقد تمثل كثرة السكان بالصور والنماذج وتمثل ضخامة المدن بالبطاقات والرسوم ، ولكننا لا نرى شيئاً قط في مسائل السياسة يشيع فيه الغلط كتقدير قوة الدولة ومنفعتها .

إن مملكة السماء لم تشبه بنواة أو جوزة كبيرة بل شبهت بحبة الخردل وهي من أصغر الحبوب ولكنها تمتاز بالخاصة النادرة التي تهيب لها سرعة النمو والانتشار

كذلك الحكومات منها ما هو واسع ولكنه غير قابل للعظمة والسلطان ومنها ما هو صغير ولكنه قابل لأن تؤسس عليه أعظم الممالك إن المدن المسورة والمساح المملوءة والعدد الكثيرة والحيل الأصائل

ومركبات الحرب والقيلة والمدافع وما شاكلها — كل أولئك إنما هي كالحراف في جلود الأسود ما لم تكن في طبيعة الشعب صلابة الحرب والجهاد ولا قيمة لوفرة العدد في الجيوش حيث يتلى الشعب بالخور ويحرم فضيلة الشجاعة . وقد قال فرجيل إن الذئب لا يبالي كم يبلغ قطيع الضأن من العدد ! . . وقد كان جيش الفرس في ساحة أربيل كالبجر الزاخر مما هال قواد الاسكندر فأشاروا عليه بأن يدهمهم ليلا وهم غافلون ، فكان جوابه لهم أنه لا يختلس النصر ، ثم جاءت الهزيمة على أيسر ما يكون .

ولما نظر تيجران ملك الأرمن — وهو معسكر على التل في أربعمائة ألف رجل — فرأى أن جيش الرومان لا يربى على أربعة عشر ألفاً سخر بهم وقال : إنهم أكبر من أن يكونوا وفد سفارة وأصغر من أن يكونوا جيش قتال . فلم تغرب الشمس حتى تبين فيهم الكفاية لدحره ومطاردته والإثخان بالقتل في جحظه العظيم .

والأمثلة كثيرة على التفاوت بين العدد والشجاعة ، فلا يتردد الإنسان في الجزم بأن عظمة الدولة التي تتقدم في الأهمية على كل عظمة هي أن تستعمل على شعب مليء بالقتال .

وليس المال بعصب الحرب كما يجري خطأ على بعض الألسنة . فإن الأمة لتضمحل وعندها المال إذا وهن عصب الرجال . وقد أحسن صولون حيث قال لقارون وهو يعرض عليه ذهبه : « سيدى ! إن جاءك من عنده حديد خير من حديدك بسط يديه على ذهبك » .

فليحذر الأمير أن يغتر بقوته ما لم تكن له عدة من شجاعة جنوده ،  
وليعرف الأمير حقيقة بأسه من الناحية الأخرى إذا اطمأن إلى النزعة  
العسكرية في قومه ، إن لم يكن بهم قصور في غير هذا الباب .

أما الجنود المرتزقة التي يستعان بها في هذه الأحوال فالأمثلة كلها شاهدة  
بأن الأمير الذي يلقى كل اعتماده عليها قد ينشر جناحيه إلى مدى ولكنه  
لا يلبث أن يطويهما بعد حين . ولن تتلاقى بركة يهودا وبركة يساكر<sup>(١)</sup> ،  
فتصبح الأمة الواحدة في وقت واحد شبل أسد وحمراً لحمل الأثقال ، أو  
تصبح الأمة المثقلة بالضرائب أمة شجعان مقاتلين .

وصحيح أن الضرائب التي تفرض بالرضى والمواقفة أقل مساساً بشجاعة  
السكان كما يشاهد في البلاد الواطئة « أثناء الحرب الأسبانية » أو كما يشاهد  
على نحو ما في تبرعات الشعب الانجليزي لعرش بلاده . فالقلب — وليس  
الكيس — هو مناط الأمر في هذه الحالة ، وإذا كانت الضريبة التي تجبي  
قسراً والضريبة التي تجبي طوعاً سواء في عرف الكيس فهي في عرف  
القلب غير سواء . ومن ثم يجوز لك أن تقرر أن الأمة التي ترهقها الضرائب  
لا تصلح للسيادة وسعة السلطان .

وعلى الدول التي تنزع إلى العظمة ألا تغفل عن سرعة تكاثر العلية من  
طبقاتها ، لأن كثرتها تسقط العامة إلى مرتبة الفعلة الأخساء الذين لا قلب  
لهم ولا همة ولا شأن لهم إلا أنهم عبيد السادة النبلاء ، وقد رأينا أن

(١) هما ولدا يعقوب وقد بورك لكل منهما بوصف من هذين الوصفين



الأشجار إذا كثفت في الأدغال هزل النبات الذى تحتها فلا ينجم منه إلا العشب الشاحب المزيل ، وهكذا الأمم كلما كثرت نبلاؤها خست عامتها ورذلت منزلتها . وكن على يقين فى هذه الحالة أن مائة رأس لا تكون كفاء خوذة واحدة ولا سيفا فى المشاة الذين هم عصب الجيوش وعضلها . فيكثر عدد السكان وتنقص قوة الجيوش

ولا يشاهد مصداق ذلك فى شىء كما يشاهد فى المقابلة بين إنجلترا وفرنسا ، فإن إنجلترا على قلة اتساعها وقلة سكانها لا تقوم لها فرنسا ندا فى ميدان الكفاح . إذ كان أبناء الطبقة الوسطى فيها جنداً صالحاً لا ينهض له الفلاحون من أبناء البلاد الفرنسية . ويتضح هنا أن خطة هنرى السابع — الذى توسعت فى شرح سيرته — كانت بعيدة الأمد حقيقة بالإعجاب حين عنى بتوزيع البيوت والمزارع على نحو يكفل لمن يعيشون فيها أن ينعموا باليسر ولا تنحدر بهم الحال إلى الضنك والمذلة ، وأن يظل الحراث فى أيدي مالكة لا فى أيدي الأجير المسخر لغيره ، وبذلك يصح فيها وصف فرجيل للاقليم الذى توافرت له صلابة السلاح ورخاء الأديم

وهناك طبقة ( لعليها مقصورة على إنجلترا إذا استثنينا بولنדה ) نعى بها طبقة الخدم والأتباع الذين يلحقون بالنبلاء والسراة ، وهى لا تقل صلاحاً لملح السلاح عن طبقة ملاك الأرض والزراع . ومما لا جدال فيه أن الأبهة وسعة الحاشية والسكرم الذى يتسم به النبلاء ويصبح فى حكم العادة الموروثة خصال تنزع إلى العظمة العسكرية ونقيضها البخل والضيق فى معيشة

النبلأء؁ فإنهأما ٱحففان على الطبعفة العسكرفة فف الحاشفة والأأباع

\*\*\*

وعلى أفة حال أأبغى العنافة بأأ أكون ساق شجرة « نبوخذنصر»<sup>(١)</sup>  
— شجرة الملك — من الأأانة بآفأ أأمل الفروع والأعصان؁ ونعنى بذلك  
أن فكون سكان المملكة الاصلاء على عدد كاف بالقفاس إلى عدد الرعافا  
الغرباء المحكومفن فف الدولة؁ وكل حكومة سمحة فف أأبى رعافاها الغرباء  
فهى حكومة صالحة لاأساع الملك وسفاة الامبراطورفة . إذ أن الفأة  
القلفة — وإن كانت على أعظم نصفب من الشجاعة والسفاة فف العالم —  
قد أأط بملك فأسع إلى مآفن ولكنه وشفك أن فأففق فجاءة .

وقد كان الاسبرطفون شعبا سمحا فف مسألة الأبنى والأأفنفس فوم كانوا  
فف آفز نطافهم؁ فلما أأاوزوا هذا الآفز وأرأب فروع الشجرة على طاقة  
الساق عصفت بهم العاصفة على آفن عرة .

وما فأأأ أمة صدرها قط للأبنى والأأفنفس كما فعل الرومان؁ فوافأأهم  
هذه الآصلة كل الموافقة وبلغوا العافة من سعة السلطان . وقد كان من  
أأأهم أن فمنأوا الآق المأنى فف أوسع أأوآه وأرفعها . فلا فقفأرون  
على منح آق الأأآار أو آق الزواج أو آق الورأأة؁ بل فضفون إلى هذه  
الآقوق آق الأأآاب وآق ولافة المناصب العامة؁ ولا فأفصون بذلك  
أفرادا قلائل معدوآفن بل فعمون الأسر بل المأن بل الأم فف بعض الأأوال

(١) إشارة إلى الشجرة الموصوفة فف الإصأاب الرابع من سفر أأنال .

يضاف إلى ما تقدم تعودهم أن ينشئوا الجاليات الرومانية حيث ينتقل الرومان إلى التربة الأجنبية . فإذا قرنت بين الخطتين ساع لك أن تقول إن الرومان لم ينتشروا في الدنيا بل الدنيا هي التي انتشرت في رومة ، وهذا هو الضمان الوثيق للعظمة والسلطان .

ولقد عجبت أحيانا لأسبانيا كيف انبسطت على كل هذه المدن من المستعمرات بفئة قليلة من الأسبان الأصلاء . ولكن نطاق أسبانيا ولا ريب ساق أعرض وأضخم من ساقى رومة واسبرطة ، ثم هي على تشدها في تبني الأجناس الأخرى قد فعلت ما يتلو التبنى في الفائدة وهو قبول كل الأجناس جنودا في جيشها وضباطا أو قادة في بعض الأحيان ، ومع هذا يشعر الأسبان الآن بحاجتهم إلى مضاعفة السكان كما يظهر من قانون تشجيع الزواج والنسل الذي أصدره .

ومن المحقق أن صناعات الجلوس أو الصناعات البيتية الدقيقة التي تحتاج إلى الأصبغ ولا تحتاج إلى الذراع من دأبها أن تناقض النزعة العسكرية في طبيعتها ، وقد جرت العادة بأن تجنح الشعوب العسكرية إلى الكسل وتؤثر خطر الجهاد على مجهود العمل ، وليس من اللازم الإفراط في صرفها عن هذه العادة للمحافظة على حميتها .

ولهذا كان من الملائم جدا في سبرطة وأثينا ورومة وغيرها أنهم كانوا يستخدمون العبيد الأرقاء في الاشتغال بأعمال تلك الصناعات . إلا أن شريعة المسيحية قد غيرت هذا النظام .

وأقرب نظام إلى ذلك النظام أن تترك تلك الصناعات في جملتها للغرباء الذين يجب أن يتيسر تبنيهم وتجنيسهم لهذا الغرض . وأن توزع جمهرة الوطنيين من الغوغاء بين هذه الأعمال الثلاثة : وهى فلاحه الأرض والخدمة الحرة وصناعات الرجولة القوية كالحدادة والبناء والتجارة وما إليها ، وهذا عدا الجنود المحترفين .

وفوق كل شىء نعد أهم الأمور لعظمة الدولة أن تجعل الأمم شرفها الأكبر فى حمل السلاح ودراسة فنونه والانتساب إلى صناعته . فكل ما تقدم إنما هو وسائل إلى هذه الصناعة . وماذا عسى أن تجدى الوسائل بغير القصد والعمل ؟ . . وقد قيل رواية أورمزاً إن روميوس أرسل بعد موته إلى قومه يوصيهم أن يعنوا بالسلاح فيصبحوا من ثم أعظم دول العالم بأسره ، وكان محور دولاب الحكومة فى سبرطة يدور بها كلها للاتجاه إلى هذه الوجهة وحدها وإن أخطأتها الحكمة فى تحقيقها . واهتم بها الفرس والمقدونيون لمحة والغاليون والجرمان والقوط والسكسون والنورمان زمننا ، والترك فى هذه الأيام وإن غلب عليهم الاضمحلال .

أما فى أوربا المسيحية فالأسبان وحدهم فى الواقع معنيون بهذه الوجهة ، وإنه لمن الواضح بحيث لا يخطر على البال الإطالة فى البيان أن المرء يستفيد من الشىء على قدر عنايته به ، وحسبنا أن نقول إنه ما من أمة تقصر فى اتخاذ صناعة السلاح ثم تسقط لها العظمة لقمة باردة فى أفواهاها ، وبخلاف ذلك الأمم التى تطيل مراس هذه الصناعة كما فعل الرومان والترك على التخصيص

فإنها تأتي بالأعاجيب . أما الأمم التي اتخذتها زمناً فقد بلغت بها العظمة مع ذلك وضمنت لها بقاءها طويلاً بعد تخليها عن تلك الصناعة أو تعرضها فيها للتأخر والانحدار .

ومما يساعد على هذه الوجهة أن تتاح للامة تلك القوانين والعادات التي تهيم بها أسباباً عادلة للحرب في دعواها . فإن في طبائع الإنسان حاسة العدل التي تأبى عليه دخول الحرب وما فيها من الويلات لغير سبب مفهوم للنزاع . فالترك لديهم السبب الحاضر في أيديهم للحرب وهو نشر دينهم وشريعتهم ، والرومان على اعتبارهم توسيع تخومهم شرفاً عظيماً يسبقونه على قادتهم بعد ظفرهم في الحروب لم يتخذوا قط هذه الغاية وحدها سبباً للقتال .

فعلى الأمم التي تطمح إلى العظمة أن تنمى الاحساس بالغضب لكل إساءة يلقاها سكان تخومها أو تجارها أو المندوبون السياسيون عنها ولا تصبر طويلاً على التحدى والاستثارة ، وعليها إلى جانب هذا أن تكون على أهبة دائمة لنجدة حلفائها كما كان دأب الرومان الأقدمين . حتى لقد كانوا يبادرون إلى نجدة الحلفاء لأول دعوة وإن كان حليفهم مرتبطاً بعهود الدفاع مع حكومات عدة ، فلا يكون شرف النجدة قبلهم إلى واحدة من تلك الحكومات .

\*\*\*

على أننا لا ندرى كيف يتيسر المسوغ الحسن للحروب التي كانت تشن قديماً لنصرة جانب من الجوانب أو لتشابه الأنظمة الحكومية . كالحرب

التي شنها الرومان لتحرير جراسيا أو الحرب التي شنها اللقدميون والأثينيون لتأييد الديمقراطية وحكومات العلية أو تقويضها ، أو الحروب التي كان يشنها الأجانب وهم يدعون انقاذ رعايا الدول الأخرى من الظلم والظغيان وما شاكل ذلك . ويكفي أن نذكر أنه ما من دولة يحق لها أن تطمح إلى العظمة ما لم تكن ملبية لكل سبب عادل يحفزها إلى حمل السلاح ما من بنية تغنم الصحة بغير رياضة سواء في ذلك البنية الحيوانية والبنية السياسية . ولا ريب أن الحرب العادلة هي أفضل الرياضات للدول والحكومات .

إن للحرب الأهلية حرارة كحرارة الحمى . ولكن الحرب الخارجية تبث في بنية الأمة حرارة كحرارة الرياضة وتحفظ عليها صحتها في حين أن السلم الراكد يبتلى الشجاعة بالتأنث والأخلاق بالفساد

وإذا نظرنا إلى السعادة دون العظمة فمن دواعي السعادة ولا ريب تعزيز السلاح ، فإن قيام جيش قوى عريق (وإن كبرت تكاليفه) ليصون القانون أو يصون على الأقل سمعة الأمة بين جيرانها ، كما يرى ذلك جيداً في اسبانيا حيث تحتفظ في جانب منها أبداً بجيش قائم عريق يوشك أن يظل قائماً على الدوام ، وقد مضى الآن زهاء مائة وعشرين سنة

وسيادة البحر حيطة للدولة . ومن كلام شيشرون عن استعداد پومبي لقيصر : « إن سياسة پومبي هي — على ما هو جلي ظاهر — سياسة مُستوكليس ، لأنه يرى أن الرجل الذي يملك البحر يملك الموقف » .. ولقد

كان يومى خليقاً أن يضنى قيصر لولا أنه لفرط الغرور والثقة قد عدل  
عن هذه الخطة .

وإننا لنبصر أمامنا عظم النتائج التى تعقب الحروب البحرية ، فقد كان  
لوقعة أكتيوم القول الفصل فى سيادة العالم ، وقد صدت وقعة لبانتو سطوة  
الترك . والأمثلة كثيرة على المعارك البحرية التى كان لها الحسم فى الحروب  
كلما انصرفت إليها همة الملوك والأمراء . ومهما يكن من قول فالأمر الذى  
لا نزاع فيه أن المسيطر على البحر يملك حريته ويستطيع أن يأخذ من  
الحرب أو يدع منها كثيراً أو قليلاً على حسب مشيئته . خلافاً للأقوياء  
فى البر وحده ، فإنهم مستهدفون للحرج فى كثير من الأحيان .

وفى عصرنا هذا ، بين أهل أوربا ، يبدو جلياً أن مزية السيادة البحرية  
(وهى مهر هذه المملكة الإنجليزية) جد عظيم ، لأن ممالك أوربا أولاً  
معظمها برى وله شواطئ بحرية تحيط بجزء كبير من حدوده ، ولأن ثروة  
الهنديين (هند آسيا وأمريكا) هى ثانياً فى متناول سيد البحار إلى حد كبير .

ويلوح على الحروب الحديثة أنها أقيت فى الظل إلى جانب الأنوار التى  
كانت تسطع على رجال الحروب القديمة ، فعندنا اليوم لتشجيع الروح  
العسكرى بعض رتب الفروسية وأنواطها توهب مع هذا للجنود وغير الجنود ،  
وبعض الرموز والشارات على التروس والدروع ، ومستشفيات للجرحى  
والمشوهين وغير ذلك من هذا القبيل . أما فى الزمن القديم فقد كانت عندهم

الأبراج والأقواس التي تشاد على مكان المعركة ، وكانت عندهم مراثى الفخار وأضرحة الذكري لمن قضى عليهم في القتال ، وكانت عندهم التيجان والأكاليل ولقب الامبراطور الذي استعاره بعدهم ملوك العالم ، ومواكب النصر للقواد العائدين من الحروب ، والهبات السخية للجنود عند تسريحها وغير ذلك من المكافآت التي تلهب الحماسة في جميع الصدور

ولم تكن هذه المراسم مظهراً كاذباً أو فحقة باطلة ، بل كانت نظاماً من أحكم الأنظمة التي عرفت ، لأنها جمعت بين ثلاثة أمور : تشريف القادة ، وثروة الخزانة ، وهبات الجنود

إلا أن هذا التشريف على ما يظهر لم يكن موافقاً للملوك ما لم يكن التشريف للملك نفسه وأبنائه ، كما حدث في أيام الرومان إذ كان الملوك يجتنبون لأنفسهم ولأبنائهم معالم النصر الحقيقية في الحروب التي حضروها ، ويتركون للحروب التي انتصر فيها القواد علامات تشريف لا تزيد على الحلل والشارات

ونختم الكلام بأن نذكر ما جاء في الكتاب إذ يقول إن الانسان لا يستطيع أن يزيد بجهد من المجهود قيراطاً على قامته ، فنقول إن هذا الذي لا يستطيع في بنية الانسان يستطيعه الملوك في سمعة الممالك ومجدها ، فيضيفون اليها السعة والعظمة ويخلفون لأعقابهم — باتخاذ تلك النظم والعادات التي ألمعنا اليها — مجدداً باقياً وعزة موروثه . ولكنها أمور لا تلاحظ على العموم وتترك للمصادفات



## مقتبسات من مقالات

### الانفاق

من عهد في نفسه السرف في باب من الأبواب فهو محتاج إلى القصد في باب آخر . فإن كان مسرفاً في المائدة فليكن مقتصداً في الكساء ، وإن كان مسرفاً في الردهة فليكن مقتصداً في الاسطبل ! . وقس على ذلك . لأنه إذا أسرف في جميع الأبواب فقلما يسلم من البوار

### الطبيعة الانسانية

... لا يطينن أحد قسر نفسه على عادة من العادات . وليداخل بين ذلك قليلا ، لأن الفترة التي يعنى فيها نفسه من القسر تعزز العادة الجديدة ومن كان به نقص وهو قائم بعمل فهو حرى أن يزاول فضائله كما يزاول نقائصه ، ويرواح بين هذه وتلك . ولا سبيل إلى الإلبداخلة في حينها الملائم . ولا يغفلون أحد في الثقة بانتصاره على طبعه ، لأن الطبع يكمن زمنياً ثم ينبعث مع الفرصة أو الاغراء ، على نحو ما جاء في خرافات أيسوب عن الفتاة التي كانت قطة فأصبحت انسانية حسناء . فما لبثت وهي جالسة على المائدة في خفرها وحيائها أن بصرت بالفأر فوثبت إليه

### الغضب

الغضب ولا ريب نقص في الخليقة ، لأنه لا يظهر على أكثره إلا في الضعفاء كالأطفال والنساء والشيوخ . وخليق بالشيوخ إن غضبوا أن يجعلوا

غضبهم إلى السخر أقرب منه إلى الخوف ، حتى يبدو عليهم أنهم فوق الإساءة لادونها ، ولا يصعب ذلك على الإنسان إذا راض نفسه على ضبط عنانه .

وبعد ، فإن أسباب الغضب على الأ أكثر ثلاثة ؛ « أولها » أن يكون الإنسان حساساً للإساءة ، إذ لا يغضب الإنسان ما لم يشعر بأنه قد أسىء إليه ، ولهذا يتعرض أصحاب المزاج الرقيق كثيراً للغضب لتعدد ما يزعمهم من الأمور التي لا يحسها أصحاب الطبائع الخشنة القوية . و « ثانيها » : أن تكون الإساءة مفرغة في قلب الازدراء لأن الازدراء يشحذ الغضب ويوقد ضرامه ويبلغ من إثارة النفس ما لا تبلغه الإساءة والمضرة . فمن كانت في طباعه يقظة لعوارض السخرية والازدراء واعتقاد سوء النية فيها فهم أشد الناس اشتعال غضب واضطراب سورة . و « آخرها » : كل قول له مساس بسمعة المرء وأحدوثة الناس عنه فإنه يمتنهي غوارب الغضب وينضوها . وإنما العلاج أن يجعل المرء كرامته وسمعته من بنيته أقوى وأصلب على المغامز كما تعود جونسالقو أن يقول (١)

(١) هو فارس أسباني من فرسان القرن الخامس عشر حارب العرب في غرناطة .  
(١٣١)

## سطور من فصول

وهي مقتبسات متفرقة من كتب باكون المختلفة

كل معرفة أو عجب (وهو بذرة المعرفة) هي في لبابها مما يقع في النفس  
موقع السرور.

إذا بدأ المرء باليقين فهو منته إلى الشك ، ولكنه إذا اكتفى بالشك في  
البداية وصل في النهاية إلى اليقين .

معرفة الإنسان كالماء : بعضه يهبط من السماء ، وبعضه يتفجر من  
الأرض ؛ وإحدهما تصل إلينا بنور الطبيعة ، والأخرى توحى إلينا بتنزيل  
من الله .

نحن أميل كثيراً إلى ما كياfly وأمثاله ممن يقولون ما يعمله الإنسان  
لا ما ينبغي أن يعمله .

كل فلسفة أخلاقية حسنة فهي وصيفة للديانة .

من مبادئ ليساندر أن الأطفال يخدعون بالحلوى والرجال بالأقسام .

طرق الحياة كطرق المكان ، أقصرها كثيراً ما يكون أقدرها ، وليس  
أجملها بالتقريب منك في كل حين .

في الطبيعة ينابيع من العدل تنبثق منها القوانين كالجدول .

ينبغي أن تتبع الكتب العلوم ، لا أن تتبع العلوم الكتب .

الوجه الجميل توصية صامته .

الرجاء إفطار حسن ولكنه عشاء رديء .

كان الونسو الأراغوني يقول في مدح القدم : إنه يبدو خيراً وأفضل في  
أربعة أشياء ! الحطب القديم ليحرق ، والخمر القديمة لتشرب ، والأصدقاء  
القدامى ليوثق بهم ، والمؤلفون الأقدمون ليقرأوا .

لما فرديمستين من المعركة ولیم على ذلك قال : إن الذي يفر مرة يقاتل  
مرة أخرى .

لما هنا بيرهوس أصدقاؤه بانتصاره على الرومان بقيادة فابريكوس بعد  
مقتلة عظيمة في جيشه قال . نعم ! ولكننا إذا انتصرنا هكذا مرة أخرى  
قضى علينا .

الثروة خادمة جميلة ولكنها أقبح سيده .

في صوت الشعوب شيء من الربانية . وإلا فكيف تتفق كل مذهب  
الأنفس على رأى واحد؟

الصمت فضيلة المحقق .

ليس لخطة اعتدال قط قبول عند الغواء .

القول بأن الأشياء كلها تتغير وأنه لا شيء في الحقيقة يبنى وأن مقدار  
المادة يبقى أبدا كما كان — هو يمين واف .

تتفق الألوان جميعاً في الظلام .

من كانت له زوجة وأولاد فقد أعطى الرهائن للأقدار . لأنهم عقبة  
في طريق كل عمل عظيم للخيرات كان أو للشرور .

الزوجات خلال الشباب ، ورفيقات الكهولة ، وممرضات الشيخوخة

كما يكون المواليد عند وضعهم قباح المنظر كذلك البدع عند ظهورها  
تقبح في العيون ، لأنها مواليد الزمان

من لم يتخذ العلاج الجديد عليه أن يتوقع الداء الجديد ، لأن الزمن  
أبو البدع ومنشئ الجديد

في الدنيا صداقة قليلة ، وبخاصة بين الأكفاء

الفرصة تخلق اللص

لا نستطيع أن نسيطر على الطبيعة إلا بطاعتها

المعرفة قوة

من أشبع غيره منه رخص

اختيار الوقت قصد في الوقت

في الطبيعة الانسانية من الأحق فوق ما فيها من الحكيم

الفرنسيون أعقل مما يظهرون ، والإسبان يظهرون أعقل مما هم في الحقيقة

البيوت جعلت للسكن لا للنظر ، فلنقدم فيها الفائدة على النسق ، ما لم

تتفق لها المزيتان

الشعر

من كتاب « ترقية المعارف »

الشعر جزء من المعرفة في قالب كلمات مقيدة بعض التقييد، ولكنها فيما عدا ذلك غاية في الترخص والطلاقة ، ومرجعها الأصيل إلى الخيال الذي لا تربطه قوانين المادة ، ولهذا يصل كما يشاء بين ما فصلته الطبيعة ويفصل بين ما وصلته ، ويزاوج ويطلق بين الأشياء على غير السنة المشروعة كما قيل « إن الرسامين والشعراء قد أبيع لهم دائماً ما يرومون »

ويؤخذ الشعر على مأخذين في كلماته أو مادته . فهو على أحدها نسق من الأسلوب يرجع إلى صناعات الكلام ولا شأن لنا بها فيما نحن بصده الآن ، وهو على المأخذ الآخر — كما قيل — قسم من أقسام المعرفة الهامة ، لا يعدو أن يكون في الحقيقة نمطاً من التاريخ الرمزي يدخل في المنثور كما يدخل في المنظوم .

وغرض هذا التاريخ الرمزي هو أن يعطى العقل الانساني ظلاً من الرضى في تلك الأحوال التي تضن طبيعة الأشياء بإرضائه فيها . فالدنيا في وضعها بمرتبة دون مرتبة الروح ، ويحدث من أجل ذلك أن تحس الروح بعظمة أوسع وخير أحكم وتنوع أعم وأكبر مما تحتويه طبائع الأشياء . ولما كانت حوادث التاريخ الصحيح لا ترتقى في مداها إلى مرضاة العقل الإنساني فالشعر يمثل له أعمالاً وحوادث أرفع وأقرب إلى البطولة . لأن التاريخ الصحيح يعرض لنا الأعمال والحوادث المألوفة التي يقل التنوع فيها ، فيهب لها الشعر ندرة وتنوعاً غير متوقع أو معهود ، وهو ما يظهر منه أن الشعر ينزع إلى الطيبات ومحاسن الأخلاق وبهجة الخواطر . وبهذه المثابة يعتقد دائماً أن له حظاً من الإلهام الإلهي مذ كان يرفع العقول ويقومها من حيث يربطها المنطق بطبائع الأشياء ويثنيها لسلطانها ، وبهذه الإيحاءات والمطابقات بين طبيعة الانسان والسرور مع مجاراتها للنغم الموسيقي والصوت الموزون كان للشعر مدخل وتقدير في عصور البربرية الخشنة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة والتعليم .

وللشعر أقسام يشارك فيها التاريخ كتمثيل الأخبار والسير وتمثيل الرسائل والخطب وما إليها ، ولكنه فيما عدا ذلك ينقسم أفضل تقسيم إلى فروع ثلاثة : وهى الشعر القصصى ، وشعر التصوير والتشبيه ، وشعر الرمز والإيماء أو الكناية

فالشعر القصصى إن هو إلا محاكاة للتاريخ مع الغلو والتزويد اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم ، وموضوعاته على الإجمال هى الحرب والحب والسياسة نادراً ، والسرور والهوى فى بعض الأحيان .

وشعر التصوير والتشبيه هو التاريخ الشاخص المنظور ، أو هو صور الحوادث كأنها حاضرة من حيث يكون التاريخ صوراً لها فى الطبيعة كما هى — أى كما مضت .

وشعر الرمز والكناية هو سرد يراى به التعبير عن بعض الأغراض الخاصة أو التورية . وقد كانت هذه الحكمة الرمزية شائعة فى الأزمنة القديمة على أمثلة خرافات أيسوب ومأثورات الحكماء السبعة وما يظهر من استخدام الكتابة الهيروغليفية . وعلة ذلك ضرورتها للتعبير عن المرامى التى هى أدق وأخفى على فهم الغوغاء فى تلك العصور . لأن الناس فى تلك العصور كان يعوزهم تنوع المثل ودقة التورية . وكما سبقت رسوم الهيروغليفية الحروف كذلك كانت الأمثال سابقة للحجج والبراهين ، وهى حتى الآن ، وفى كل زمان ، تشتمل على حياة جمّة ونشاط وافر ، لأن المنطق لا يساويها فى التنبيه والأمثلة الحية .



ولكن للشعر الرمزي بعد هذا غرضاً يقابل ذلك الغرض الذى قدمناه ، لأنه يرمى فى سياق التعليم إلى الشرح من طريق المواربة والتلبيس بين الظاهر والباطن ، كما يحدث فى أسرار الديانة وخفاياها أو فى السياسة أو الفلسفة حين تطوى فى خلال الخرافات والأمثال . واستخدام ذلك فى الدين جائز مرخص به كما رأينا ، وكان استخدام الخرافات على عهد الوثنية كثيراً ما يفيض فى سهولة وخفة ، ومن أمثله تلك الخرافة التى تقول إن المردة قهروا فى حربهم مع الآلهة فأخرجت أمهم الأرض « الإشاعة » من أحشائها على سبيل الانتقام . فإن هذه الخرافة ترىنا أن الامراء والملوك حين يجمعون الثورات والقلاقل العلنية تعمد ضعينة الجماهير — وهى أم الثورات — إلى خلق النائم والإشاعات والتهم التى هى من مادة الثورة ولكنها مؤثرة .

كذلك الخرافة التى تقول إن الأرباب قد ائتمرت برئيسها جوبيتر لتوثقه وتحد من سطوته ، فاستدعى بالاس Pallas إليه برياروس Briareus بأيديه المائة لمعونة الاله الاكبر . فان هذه الخرافة ترىنا أن الملوك حريون ألا يبالوا بانتقاض رعاياهم الأقوياء على سلطانهم ما أمكنهم بالرأى والتدبير أن يملكوا قلوب شعوبهم الذين يتضون إليهم لمعوتهم وكذلك الخرافة التى تقول إن أشيل تربي برعاية السنثاؤر شيرون وهو نصف إنسان ونصف دابة . فان هذه الخرافة تعلمنا ما أجاد ما كيا فى شرحه وإن أفسده ، حيث يتجلى أن تعليم الامراء وتدريبهم ينبغى أن يتوخى فيهما

اقتدار الأمير على القيام بدور الأسد في العنف والتعلب في الحيلة ، كما يتوخى  
فيهما القيام بدور الانسان في الفضيلة والعدالة  
على أنني أميل إلى الاعتقاد — في أشباه هذه الخرافات — أن الخرافة  
وضعت أولاً ثم جاء بعدها الشرح والتفسير ، ولا أعتقد أن المغزى وضع  
أولاً ثم جاءت بعده الخرافة . وقد يماً أولع الغرور كريسبس Chrysippus  
باجهاد نفسه في عنت شديد لتعليق آراء الفلاسفة الرواقيين على خرافات  
الشعراء الأقدمين .

أما أن جميع الخرافات والتقصص التي نظمها الشعراء كانت لهواً ولم تكن  
رموزاً وعظات فذلك ما أمسك عن إبداء الرأي فيه ، ومن هؤلاء الشعراء  
الذين بقيت آثارهم هومير نفسه . . . وقد جعله المتأخرون من أساتذة اليونانية  
ضرباً من التنزيل ! فلا صعوبة في القول بأن خرافاته لا تنطوي على دخائل  
المعاني التي تنسب إليها ، وليس من السهل مع ذلك أن نجزم بمرامها لأنه  
هو لم يكن مخترع الكثير منها .

وفي هذا الجزء الثالث من المعرفة — وأعني به الشعر — لا أستطيع أن  
أشير إلى نقص أو آفة . فإنه كالشجرة التي نبتت من شهوة الأرض بغير  
بذرة سابقة فأصابت من النمو والجزالة ما لم تصبه شجرة أخرى . وعلينا أن  
نعطيها حقها ونوفي لها قسطها . ففي التعبير عن الخواج والأهواء والمفاسد  
والعادات نلجأ إلى آثار الشعراء أكثر من لجؤنا إلى آثار الفلاسفة .  
وليس التجاؤنا إليها بأقل كثيراً من التجاؤنا إلى آثار الخطباء في معارض  
الفتنة والفصاحة .

وبعد فلا يحسن بنا أن نسهب طويلاً في هذا المجال . فلننتقل منه إلى مجال القضاء فنقبل عليه ونستجليه بوقار أعظم وعناية أوفى

### الملك هنرى السابع

هذا الملك — إذا تكلمنا عنه بما هو أهل له — كان عجباً من أحسن العجب ، لأنه كان عجباً لذوى الحكمة والذكاء . وكانت في كل من فضائله وحفظه جوانب مختلفة هي أصلح للتأمل منها للعرض المشاع كان تقياً في شعوره وسلوكه ، ولكنه لنفاد بصره في الأوهام بالقياس إلى زمنه كانت تغلب عليه السياسة البشرية بين حين وحين .

كان يقدم رجال الكنيسة ، وكان رقيقاً بجزايا المعابد وحقوقها ، وإن أصابه منها بعض الأذى ، وقد بنى كثيراً من العائر الدينية وأنفق عليها عدا مستشفاه التذكارى بسفوا . وكان إلى ذلك محسناً في الخفاء مما يدل على أن أعماله في العلانية إنما كانت لمجد الله لا لمجده

وكان هجيراً أن يعيش في سلام ، وتعود في تقديم معاهداته أن ينص على أن السيد المسيح يوم جاء إلى الأرض ارتفعت الأناشيد بالسلام ، ويوم فارقتها خلف بعده وصية السلام . ولم تأت هذه الفضيلة من خوف أو نعمة ، بل كان شجاعاً على الهمة موفور النشاط . فهذا الخلق منه لا ريب من الدين ومكارم الأخلاق .

على أنه قد عرف أن سبيل السلام لا يقتضى الإحجام عن الحروب ،

ومن ثم كان ينذر بالحرب وينشر أحداثها وأرهاصها حتى يسوى أحوال السلام ، وإنه لعظيم أن يكون الرجل الذى أحب السلام ذلك الحب سعيداً موقفاً فى الحرب ، إذ كانت جيوشه سواء فى خارج بلاده أو فى الحروب الأهلية لم تُمنَ قط بسوء الطالع ، ولم تعرف قط ماهى الهزيمة

### ذى رُفنج REVENGE

من تعليقات على الحرب الأسبانية

فى سنة ١٥٩١ اشتركت سفينة انجليزية باسم رُفنج ( الانتقام ) فى قتالٍ باقى الأثر بقيادة السير رتشارد جرنفيل . ونقول باقى الأثر فوق كل كلام وإلى ذروة من البطولة تشبه بطولة الأساطير . وقد كانت هزيمة ، ولكنها أرفع من النصر والغلبة . . . كأنما هى ضربة شمشون التى قتل بها فى موته أضعاف من قتل وهو بقيد الحياة .

لبثت خمس عشرة ساعة كالأيل بين كلاب الصيد التى تقف له بالمرصاد ، وأحاطت بها خمس عشرة سفينة أسبانية تناضلها من أسطول تبلغ عدة قطعه خمساً وخمسين ، وقفت بقيته تتربص من بعيد . وكانت بين السفن المقاتلة تلك السفينة الكبرى المعروفة باسم القديس فيليب وحمولتها نحو ألف وخمسمائة طن ، وهى سيدة الاثنى عشرة المعروفة فى الأسطول الأسباني برسل البحار . فحمدت الله على السلامة حين تحولت عن ذى رُفنج !

وقد كانت هذه السفينة الباسلة لا تقل أكثر من مائتي جندي وبحار بينهم ثمانون مرضى في الفراش ، ومع هذا غرق حولها سفينتان بعد قتال دام خمس عشرة ساعة وعطبت سفن أخرى وقتل فيها خلق كثير ، ولم تستسلم قط بل أخذت بالوفاق والمصالحة بين الإعجاب العظيم من العدو بقائدها وسيرتها الفاجعة في جملتها

### الطرائف والأجوبة

جمع باكون في هذا الكتيب اللطيف نتفا من مطالعته الواسعة في الأدب والتاريخ ، ونوادير من محفوظاته ومسموعاته التي وردت عليه في بيئته وبيئة ذويه وخاصة صحبه ، وسماه بالانجليزية A collection of Apothegms وهي كلمة تقابل عندنا معاني كثيرة نطلقها على الطرائف وجوامع الكلم وماشاكلها من الأمثال السائرة والأجوبة المسكتة والمأثورات النادرة . واخترنا لها عنوان الطرائف والأجوبة لأنه أنسب العناوين لموضوعها كما سيرى القارىء من هذه المختارات المتفرقة ، وهي في رأينا أدل ما كتب باكون على أهوائه وأحاديثه في مبادله وأدله من ثم على الناحية الانسانية فيه . فاذا كان «القانون الجديد» وطوبى الجديدة وترقية التعليم أو المعرفة ترجمان باكون العالم، وكانت مقالاته وفصوله ترجمان باكون الأديب، فهذه الطرائف والأجوبة ولا ريب ترجمان باكون الانسان حيث يعيش لنفسه وبين

جلسائه ومسامريه ، وهى من هذه الوجهة تضم إلى قيمتها الأدبية قيمة أخرى فى باب الترجمة له والتعريف بنفسه وهواه .

وقد جمعها من ذاكرته فى أواخر أيامه وأشار فى التمهيد لها إلى عناية يوليوس قيصر بجمع الطرائف والأجوبة من قبيلها ، كأنه يعتذر من اشتغاله بمثلها وهى فى الواقع من خير ما ترك وأتمعه للقارىء الذى ينشد التسلية أو يستفيد .

وهذه نماذج منها تلم بجميع موضوعاتها وأغراضها ، وتنبئ القارىء عما توخاه فيها .

---

دعت الملكة آن بولين Ann Bullin إليها رجلا من حاشية الملك وهى تساق فى البرج إلى الموت ، وقالت له : « اذكرنى عند الملك وقل له بلسانى إنه كان مثابراً على سنته فى الارتفاع بى من منزلة إلى ما فوقها . فقد نهض بى من امرأة بين السيدات عامة إلى رتبة المركيزة ، ثم نهض بى من رتبة المركيزة إلى عرش الملكات ، وها هو ذا اليوم — إذ لم تبق أمامه منزلة على الأرض يرفعنى إليها — قد تابى على سنته فتوج براءتى بـجد الشهداء »

---

كان قائد عظيم من قواد فرنسا على خطر من ضياع منصبه الكبير ، فلم تزل قرينته بشتى الحيل والوسائل ساعية فى خلاصه حتى حفظت له ذلك

المنصب المهدد بالضياح . فقال بعض الظرفاء : لقد سحق ولكنه احتمى  
من السحق تحت قرنين ! »

توجه أعضاء المجلس الخاص إلى الملكة اليصابات بكثير من النصائح  
لتنبيهها إلى مكائد المتربصين بحياتها . وقيل لها إنهم قد اعتقلوا أخيراً بعض  
المجرمين وهو يتأهب في شر حال للفتك بها ، وأروها السلاح الذي أعده  
لاغتيالها ، ثم أشاروا عليها باجتناب الخروج في ذلك الحرس القليل الذي  
تعودت أن تخرج به لرياضتها . فأصغت إليهم ثم أجابتهم قائلة : « إنها  
تفضل أن تموت ميتة القتلى على أن تعيش عيشة السجناء » .

كانت ملكة هنرى الرابع — عاهل فرنسا — حاملاً في أوائل حملها ،  
وكان الكونت سواسون يتطلع إلى العرش من بعد هنرى الرابع ، فكان  
يقول كلما علا بطن الملكة : إنما هي وسادة ! ... فسمى كلامه إلى الملك  
فأسره في نفسه حتى أوشكت الملكة أن تضع حملها . ثم استدعى الكونت  
سواسون وقال له وهو يضع يده على بطنها : ألا تزال تحسبها وسادة  
يا ابن العم ؟ فلم يتلعم الكونت بل قال على الفور : « نعم يا مولاي ! إنها  
وسادة تركز إليها فرنسا بأسرها ! »

كانت الملكة اليصابات تقول عن أوامرها لكبار موظفيها : إنها كالحلة

التي تلبس مستقيمة في جدتها ثم تتثنى وتسترخى يوماً بعد يوم .

زارت الملكة اليصابات منزل السير نيكولاس باكون حامل خاتم الملكة وهي عابرة في طريقها . فقالت له : أيها اللورد ! ما أصغر منزلك هذا ؟ قال السير نيكولاس باكون : « مولاتي : إن منزلي حسن ، ولكنك يا مولاتي أنت التي جعلتني أضخم من أن يتسع لي منزل كهذا » .

كان طاليس الفيلسوف ينظر إلى النجوم فسقط في الماء وهو لا يراه . فقيل في هذا المعنى : لو أن الفيلسوف نظر إلى الماء لكان خليقاً أن يرى النجوم فيه ، ولكنه نظر إلى النجوم ففاته أن يرى الماء .

ندب بعض الضباط مهمة مهلكة زوده القائد لها بعدد من الجند قليل لا يكفي لإنجازها . فلم يطلب المزيد بل قال لقائده : زودني يامولاي بنصف هذا العدد وكفي . فعجب القائد وسأله : ولم ؟ فقال الضابط . نعم ياسيدي . فإنه كلما قل عدد القتلى كان ذلك خيراً وأبقى !

من أمثال الأسبان : أن الحب الذي لا غاية له ليست له غاية . . . يريدون بذلك أن الحب لغير غرض يبقى ولا يعجل بالانتهاء .

كان رجل شديد الغيرة على امرأته فجعل يتبعها حيث تسير ويتعقب



أخبارها في كل مكان . فلما ضجرت من غيرته قالت له في كلام صريح  
لا مواربة فيه : أولى لك أن تعدل عن هذا التعقب المضجر ، وإلا أثبت  
لك على جبينك قرنين يصدانك عن الخروج من كل باب !

كان ميخائيل انجلو — المصور المشهور — يرسم صورة جهنم في كنيسة  
البابا ، فوضع في الرسم مع الأرواح الملعونة المؤبدة في الجحيم صورة كاردينال  
كان يبغضه ويغاديه . فلم يخف منظره على أحد رآه .  
فتوسل الكاردينال إلى الخبر الأعظم في ذلة وضراعة أن يأمر بمسح  
تلك الصورة من رسم الجحيم فأجابه الخبر الأعظم باسمًا : ومن أين لي ذلك ؟  
أنت تعلم حق العلم أن لي سلطاناً على الأرواح التي في الأعراف ولاسلطان  
لي على الأرواح التي دخلت النار !

مات رجل مثقلاً بالديون . فاجتمع دائنوه يقول أحدهم : ثن ذهب إلى  
الدار الآخرة لقد حمل معه خمسمائة دينار من مالي ، ويقول غيره : وحمل  
من مالي إلى الدار الآخرة مائتي دينار . ويعدد الآخرون ديونهم عليه .  
فقطاعهم بعض الحاضرين قائلاً : الآن علمت أن الراحل من الدنيا لا يحمل  
منها شيئاً من ماله ، ولكنه قادر على أن يحمل معه كثيراً من أموال الناس !

هجر مصور صناعة الرسم وسلك نفسه بين الأطباء . فقال له ظريف : لقد  
أصبت فيما صنعت . فقد كانت أخطاؤك منظورة فصارت مدفونة في التراب !

كان السلطان سليم العثماني أول من حلق لحيته من سلاطين آل عثمان  
فسأله أحد الباشوات : لم بدلت يا مولاي عادة الآباء والأجداد ؟  
قال السلطان : لكيلا تسحبوني معشر الباشوات منها كما كنتم تسحبون  
أولئك الآباء والأجداد .

كان مستر بنتهام القاري في خان جرای يقول : إن الثروة كالسماد يشتم  
منه العفن إذا تراكم في موضع واحد ، ولكنها تثمر أحسن الثمرات إذا هي  
انتشرت على أديم الغبراء .

كان بين قيصر بوجيا وسادات روماني خلاف قديم لم يزل يحتال  
عليهم حتى سواه وأصلح ما بينهم وبينه . فعاهدوه عهداً اشترطوا فيه ألا  
يدعوهم كلهم في جمع واحد إليه . مخافة أن يتمكن منهم مجتمعين فيبطش  
بهم أجمعين . ولكنه ما برح يتلطف إليهم ويتسلل إلى مكان الثقة من  
نفوسهم حتى اطمأنوا إليه . ثم دعاهم إلى الاجتماع حيث استأصلهم ولم يبق  
منهم أحداً . وأبلغ بعض الكرادلة أباه هذه الفعلة على أنها فعلة موقفة  
ولكنها غادرة — فقال البابا الكسندر : إنهم هم الذين نقضوا العهد  
فخضروا إليه جماعة !

كان كاتو الأكبر يقول : إن الرومان كالخراف ... سوق قُطيع منها أيسر  
من سوق خروف .

سيق بيون الملحد في بعض المواضع إلى هيكل نبتون حيث أروه  
ألواحاً شتى عليها رسوم أصحاب النذور الذين نجوا من العواصف بالتوسل  
إلى إله البحار . ثم تحدوه سائلين : وما قولك الآن ؟ ألا تعترف الآن  
بقدره الآلهة ؟

فأسرع مجيباً : بلى ، ولكني أسألكم : أين أجد الألواح التي يرسم عليها  
الغرقى من أصحاب النذور ؟

ابتهى جندي بندوب وجهه من أثر جراح الحرب أمام يوليوس قيصر ،  
وكان قيصر يعرف فيه الجبن والكذب . فقال له : خليك بك إذن ألا تلتفت  
وراءك وأنت هارب .

كلن طراجان يسخر بغيرة الأمراء ممن يخلفهم ويعجب من محاولتهم  
إخفاء أمرهم أو إقصاءهم ، ويقول : لم يوجد قط ملك قتل خليفته من بعده !

سئل فيليب المقدوني أن ينفي رجلا يسمى المقالة عنه في غيبته ، فقال :  
خير لنا أن يتكلم حيث نحن كاللنا معروفان من أن يتكلم حيث لا يعرفه  
ولا يعرفني أحد .

هزى اشينس بالخطيب ديمستين قائلاً في وصف خطبه إنها تنفت منها

رائحة الشمع . . كناية عن الجهد والسهر في تحضيرها . فقال ديمستين : نعم .  
والفرق مع ذلك عظيم بين ما يعمله كلانا على ضوء الشموع .

---

من أقوال فيلوجودس Philo judeus إن العقل كالشمس ( يعنى  
فى مسائل العقيدة والايمان) إذ تحجب كواكب السماء وترينا صفحة الأرض ،  
وهو يستر عنا الأمور السماوية ويكشف لنا الأمور الأرضية .

---

وهب داريوس للاسكندر هبات طائلة بعد معركة « جرانيكوم »  
فشاور قواده فى أمرها ، فقال پارمنيو : لو كنت أنا الاسكندر لقبقتها .  
فقال الإسكندر : وكذلك أنا لو كنت پارمنيو .

---

تزوج كاتو الأكبر فى شيخوخته بامرأة بعد زوجته المتوفاة . فجاءه ولده  
يعاتبه قائلاً له : بم أسأت إليك يا أبت حتى أدخلت على بيتنا هذه الضرة .  
فقال كاتو : كلا ! يا بنى . إنك لم تسىء إلى بل أحسنت ، ولذلك التمت  
المزيد من الأبناء .

---

فرق الاسكندر بين قواده وأولى حظوته عطايا عظيمة بعد اقتحامه  
البلاد الآسيوية . فسأله پارمنيو : وماذا أبقيت لنفسك ؟ فأجابه بكلمة  
واحدة : الأمل .

---

عرض قارون كنوزه على صولون الحكيم فقال له الحكيم : لئن جاءك ملك حديده أفضل من حديدك ليذهبن غداً بكل ذهبك .

---

ليم اريستيس على الإسراف والبذخ وكان لأئمه من الفقراء ، لأنه اشترى سمكة صغيرة بستة دنانير . فسأله اريستيس : وبكم كنت تشتريها أنت ! فقال الفقير : بدراهم معدودة . قال اريستيس : وستة دنانير لا تساوي عندي أكثر من دراهم معدودة .

---

بعث القرطجينيون بزعيمهم هاني مندوبا للصلح بعد الحرب القرطجينية الثانية فأفلح في عقده . ولكن شيخاً من شيوخ المجلس الروماني قال له في أثناء المفاوضة : إنك كثيراً ما أقسمت وحنثت في قسمك . فبأى الآلهة ياترى تقسم الآن ! فأجابه هاني : بالآلهة نفسها التي رأيتم عقابها الصارم للحنث في أيمنها !

---

كان ديوجنيس يقول إذا أحاطت به الفيران وهو يأكل : حتى ديوجنيس يطعم الطفيليين .

---

سن الرومانيون قانوناً يحرم الرشوة وقبول الهدية على حكام الأقاليم ، فألقى شيشيرون خطاباً على الشعب قال فيه : إنه يحسب أن الأقاليم سوف تتوسل إلى حكومة روما للإلغاء هذا القانون . فإن الحكام كانوا قبل سنة يأخذون

من الرشاوى والهدايا ما يكفيهم ، ولكنهم الآن لا يقنعون بذلك حتى يأخذوا  
معه ما يكفي القضاة المحلفين ومراجع الرئاسة !

---

كان شيلون يقول : إن الذهب يمتحن بمحك المعدن ، والرجال  
يتمحنون بالذهب

---

كان مستر پوڤام رئيساً لمجلس النواب قبل أن يصبح رئيساً للقضاة ،  
واتفق في تلك السنة أن المجلس أطال الجلسات على غير جدوى . فلما لقي  
الملكة اليصابات سألته : ماذا قضيتم يا حضرة الرئيس في مجلس النواب ؟  
فقال الرئيس : سبعة أسابيع إذا سمحت يا مولاتى !

---

فتن ثمستوكليس في أيام خصاصته بفتى جميل كان يعرض عنه ويسخر  
منه ، فلما عظم قدره جاءه الفتى يسعى لمرضاته . فأعرض عنه ثمستوكليس  
وقال : أرى يا صاح أننا كلينا قد تعلمنا الحكمة ، ولكن بعد الأوان

---

خرج بيون في سياحة بحرية فلم يلبث أن هاجت بسفينته الأعاصير ،  
وتعالت أصوات النواتية معه بالدعاء إلى الآلهة — وكانوا من شرار الناس —  
فصاح بهم : صه ! لا تدعوا الآلهة تعرف بمكانكم في هذه السفينة !

---

كان پاس النديم قد حرم لقاء الملكة اليصابات لسلطة لسانه في نكاته .  
فشفع له بعض رجال الحاشية وأكدوا للملكة أنه سيمسك لسانه ولا

يتجاوز حده . فلما مثل بين يديها قالت له : هلم يا پاس . حدثنا الآن عن عيوبنا ونقائصنا . فمالك النديم أن قال : لم أعود يا مولاتي أن أخوض في الحديث المعاد . . . وأن أكرر ما يتحدث به جميع الناس !

---

قال بعض السلف : الفرق الوحيد بين موت الشيوخ وموت الشبان أن الشيوخ يذهبون إلى الموت ، وأن الموت يذهب إلى الشبان .

---

كان ديمتريوس ملك مقدونية يعتزل العمل ويعكف على اللهو ويدعى المرض وهو محتجب عن الناس . فزاره أبوه أنتيجونس يوماً من هذه الأيام وهو يزعم أنه محوم ، فرأى فتى مليحاً رشيقاً يخرج من حجرتة . فلما رأى الملك أباه فوجيء فقال معتذراً : إن الحمى فارقتني الساعة !  
قال أبوه : نعم رأيتها خارجة من هنا !

---

من أقوال كاتو الكبير : إن العقلاء يتعلمون من المجانين أضعاف ما يتعلم المجانين من العقلاء .

---

قيل لآنكسا جوارس : إن الأثينيين حكموا عليك بالموت ، فقال :  
وبالموت حكمت عليهم الطبيعة .

---

سئل انتيستنس Antisthenes : أى العلوم أجدى على الانسان في حياته أن يعيه في ذهنه . فقال : أن يخرج من ذهنه ما لا يفيد .

---

أنفذ الترك جيشا إلى بلاد الفرس فوقفوا عند جبال أرمينية ومضايقتها  
الوعرة يتساءلون : كيف السبيل إلى الدخول ،؟ وسمع الباشوات من حضر  
مجلسهم فقال لهم : عجبا . لقد سمعتم جميعا تسألون كيف الدخول ولم أسمع  
واحداً يسأل : كيف الخروج ؟

لما اقترح فيليب على ابنه الاسكندر أن ينزل في سباق الأولمب ليظفر  
بجائزة العدو لسرعة عدوه . قال الاسكندر : نعم ولكنى أجرى إن جريت  
في حلبة ملوك .

من أقوال اريستتيس : إن الذين يتعلمون العلوم ويهملون الفلسفة  
لأشبهه الناس بخطابِ پنيلوب حين تقدموا بالغزل إلى جاريتها !

فرض أنطونيوس على آسيا الصغرى فريضة مضاعفة ، فجاءه سفراؤهم  
يقولون : إنهم يؤدون في السنة ضريبتين إذا سمح لهم في السنة  
بربيعين وحصادين .

قال خطيب اثني لديمستين : إن الأثنيين قاتلوك لا محالة في ساعة  
جنون . فقال ديمستين : وهم قاتلوك لا محالة في ساعة رشاد .

قال اپكتيتس : إن العامى يلوم غيره في كل خطأ يصيبه ، وطالب  
الحكمة يلوم نفسه ، وأما الحكيم الواصل فلا يلوم نفسه ، ولا يلوم الآخرين .



أقام الرومانيون تماثيل كثيرة لمشاهيرهم . فسأل أحدهم كاتو الكبير .  
ما بالهم لم يرفعوا له تمثالا كغيره . فقال : أحب إلى أن يسأل الناس لم لم  
يرفعوا له تمثالا من أن يسألوا : لم رفعوا له هذا التمثال ؟ .

تعب صديق للسير توماس مور في تأليف كتاب ينشره ، وهو شديد  
الاعجاب بذكائه ، على قلة الموافقين له على رأيه في نفسه ، وجاء بالكتاب إلى  
السير توماس مور ليقراه ويصارحه برأيه فيه . فلم يجد السير توماس في  
الكتاب ما يستحق عناء النشر وقال لصاحبه : حبذا لو كان نظماً وليس بنثر !  
فسرعان ما أخذه الرجل وعاد به منظوما بعد فترة وجيزة . فكان تعقيب  
السير توماس عليه في المرة الثانية أنه قال للمؤلف الخدوع في جد واهتمام :  
الآن هو شيء لأنه على الأقل موزون . أما من قبل فلم يكن بالمعقول  
ولا بالموزون .

كان أحد الحكماء السبعة يقول : إن القوانين كنسج العنكبوت تقع  
فيه صغار الطير وتعصف به كبارها .

كان فوسيون الأثيني رجلاً صارماً لا يلين لعامة الناس ، ووقف يخطب  
يوماً فهتف له السامعون ، فالتفت إلى أقرب أصحابه وسأله : فيم أخطأت يا ترى؟

قال ديوجين لفتى متهم النسب رآه يرمى بالحجارة بين الجمهور : حذار  
يا هذا فر بما أصبت أباك .

كان بلوتارك يقول عن صغار الناس في كبار المناصب : إنهم كالتماثيل الصغيرة التي تضؤل في النظر كلما ارتفعت قواعدها .

---

من عادة فرنسيس باكون أن يقول عن الرجل الذي يكظم غيظه فلا يتحرك لسانه بالمسبة : إن تفكيره أسوأ من مقاله ، وعن الرجل الذي يسب إذا غضب إن مقاله أسوأ من تفكيره .

---

درجت الملكة اليصابات على أن تسأل عن كل موظف كبير من رجال الدين أو الدنيا لتعرف ما يقال عن تقواه واستقامته وعلمه ، فإذا علمت من ذلك ما يرضيها عنيت بالنظر إلى شخصه وسياه . وتفضلت في موطن من هذه المواطن فقالت لى : باكون ! كيف يكون للقاضي سلطان إن لم تكن له هيبة ووقار .

---

تكلم بعضهم عن إصلاح الكنيسة الانجليزية بحيث لا تصبح في الحق كنيسة إذا عمل برأيه . وكان سير فرنسيس باكون يميل إلى الاعتدال في هذه الشؤون ، فقال للمتكلم : سيدى ! إن الموضوع الذى تتكلم فيه هو عين البلاد الانجليزية ، ومن الحسن إذا رأينا فى العين قذاة أو اثنتين أن نخرجهما . ولكنه طيب عيون عجب ذلك الذى يخرج العين كلها لينقيها من قذاها .

---

كان لورد سانت البان — با كون نفسه — قلما يتعجل إثبات القضايا العامة ، بل يخطو إليها خطأً وئيداً من طريق التجربة . فقال يوماً لبعض الفلاسفة الذين لا يرون رأيه : إن الطبيعة كالمثاهة — لا ييرنت — كلما أسرع فيها ضللت الطريق .

---

ينتصر مرتين من ينتصر على نفسه في ساعة الغلب .

---

إذا كانت الرذيلة مجدية فالفضلاء هم الخاطئون .

---

ينام نوماً طيباً من لا يشعر أنه ينام نوماً رديئاً

---

الأم يخلق الكذب حتى من الرجل البريء

---

أصغر شعرة لها ظل .

---

يموت الإنسان عداد من يفقد من الأصدقاء .

---

يتهم نبتون — إله البحار — ظاماً من تجنح به سفينته للمرة الثانية .



## فهرس

صفحة		صفحة
١٢٠	... .. الطن	٣ ... .. مقدمة
١٢٢	... .. الخرافة	٥ ... .. عن باكون
١٢٤	... .. الجمال	٦ ... .. عصر الرشد
١٢٦	... .. الانتقام	٢١ ... .. نشأة باكون
١٢٨	... .. الشدة	٤٤ ... .. أخلاقه
١٣٠	... .. الموت	٥٥ ... .. رسالة باكون
١٣٢	... .. حكمة المعاش	٧٧ ... .. باكون الأديب
١٣٤	... .. المكر	٩١ ... .. من باكون
١٣٩	... .. الفتن والقلاقل	٩٢ ... .. مقالات : الحق
١٤٨	... .. المناصب الرفيعة	٩٥ ... .. الحب
١٥٤	... .. الصداقة	٩٨ ... .. الحظ
١٦٤	... .. عظمة الممالك والدول	١٠٠ ... .. الحسد
١٧٦	... .. مقتبسات من مقالات	١٠٧ ... .. الحمد والثناء
١٧٨	... .. سطور من فصول	١١٠ ... .. الشباب والشيخوخة
١٨١	... .. الشعر	١١٣ ... .. الدراسة
١٨٦	... .. الملك هنرى السابع	١١٦ ... .. الإلحاد
١٨٧	... .. ذى رثنج	
١٨٨	... .. الطرائف والأجوبة	

